

رَبِّكَ الْبَاقِي

تأليف

المؤلف الشيخ محمد بن عبد الله الشافعي

المتوفى سنة ٩٩٨ هـ

الجزء الثالث

تحقيق ونشر

مركز الدراسات والبحوث الإسلامية

زبدة التفاسير

تأليف

المولى فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني رحمته الله

المتوفى سنة ٩٨٨ هـ . ق

الجزء الثالث



تحقيق ونشر

مؤسسة المعارف الإسلامية

کاشانی، فتح الله بن شکر الله. - ۹۸۸ ق.

زبدة التفاسیر / تألیف فتح الله بن شکر الله الکاشانی الشریف : تحقیق مؤسسه المعارف الإسلامیة - [ویرایش ۲۲] - قم : مؤسسه المعارف الإسلامیة، ۱۴۲۳ ق = ۱۳۸۱.

ISBN : 964 - 7777 - 02 - 5 - (دوره) - ۷ ج.

ISBN : 964 - 7777 - 03 - 7 (ج ۱) ISBN : 964 - 7777 - 04 - 3 (ج ۲)

ISBN : 964 - 7777 - 05 - 1 (ج ۳) ISBN : 964 - 7777 - 06 - x (ج ۴)

ISBN : 964 - 7777 - 07 - 8 (ج ۵) ISBN : 964 - 7777 - 08 - 6 (ج ۶)

ISBN : 964 - 7777 - 09 - 4 (ج ۷)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا. عربی - کتابنامه.

۱. تفاسیر شیعه - قرن ۱۰ ق. الف. بنیاد معارف اسلامی. ب. عنوان.

۱۳۸۱

۲۹۷ / ۱۷۲۶

BP ۹۶ ۲۲

م ۸۱ - ۲۶۵۴۳

کتابخانه ملی ایران



۱۳۹

هویة الكتاب :

اسم الكتاب : زبدة التفاسیر / ج ۳.
تألیف : المآفتح الله الکاشانی.
تحقیق ونشر : مؤسسه المعارف الإسلامیة.
الطبعة : الأولى ۱۴۲۳ هـ. ق.
المطبعة : عترة.
العدد : ۲۰۰۰ نسخة.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة المعارف الإسلامیة

ایران - قم المقدسة

ص. ب ۷۶۸ / ۳۷۱۸۵ تلفون ۷۷۳۲۰۰۹ - فاکس ۷۷۴۳۷۰۱

E - mail : m_islamic@aYna.com





سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنية. وآيها خمس وسبعون.

وفي خبر أبي عن النبي ﷺ : «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له، وشاهد يوم القيامة أنه بريء من النفاق، وأعطى من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة، في دار الدنيا عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان العرش وحملته يصلون عليه أيام حياته في الدنيا».

وعن الصادق عليه السلام : «من قرأها في كل شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم، حتى يفرغ الناس من الحساب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

ولمّا قصّ الله سبحانه في سورة الأعراف قصص الأنبياء وختمها بذكر

نَبِيَّنَا ﷺ، افتتح سورة الأنفال بذكره، ثم ذكر ما جرى بينه وبين قومه، فقال: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّخَضَ الرَّجِيمَ﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: يسألك يا محمد جماعة من أصحابك ﴿عَنِ الْاَنفَالِ﴾ أي: عن حكمها.

واختلف في الأنفال ما هي؟ فقال ابن عباس وجماعة: إنها غنيمة بدر. وقال قوم: هي أنفال السرايا. وقيل: هي ما شذ عن المشركين من عبد وجارية من غير قتال. وقال قوم: هو الخمس.

والصحيح ما قال الباقر والصادق ﷺ: إنها كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال. وكل أرض انجلى أهلها عنها بغير قتال أيضاً، ويسمى الفقهاء فيئاً، والأرضون الموات، والآجام، وبطون الأودية، وقطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبة، وميراث من لا وارث له.

﴿قُلِ الْاَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ولمن قام مقامه بعده من الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم، يصرفونها حيث شاؤوا من مصالحهم ومصالح عيالهم. وقالوا ﷺ: «إن غنائم بدر كانت للنبي ﷺ خاصة، فقسمها بينهم تفضلاً منه ﷺ». وهو مذهب أصحابنا الإمامية. ويؤيده أن الأنفال جمع نفل، وهي الزيادة على الشيء، سمي به لكونه زائداً على الغنيمة، كما سمي النافلة نافلة لزيادتها على الفرض، وسمي ولد الولد نافلة لزيادته على الأولاد. وقيل: سمي النافلة نفلاً، لأن هذه الأمة فضلت بها على سائر الأمم.

واختلفوا في نسخ هذه الآية، فقال جماعة من المفسرين: نعم، نسخت بآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) الآية. وقال الطبري^(٢) وأصحابنا: ليست منسوخة. وهو الحق، لعدم المنافاة بينها وبين آية الخمس، لما ذكرنا من المغايرة بين الموضوعين.

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) تفسير الطبري ٩: ١١٩.

وقال سعيد بن المسيّب وجماعة: لا نفل بعد الرسول ﷺ. ومنعه جماعة من الفقهاء وأصحابنا، لما يَبَيَّن أنها للامام القائم مقامه.

وفائدة الجمع بين الله ورسوله ﷺ كفائده في قوله: ﴿فَأَنْ يَبْهتَ بِهِ خُفُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾^(١) على وجه يأتي إن شاء الله. فالمعنى: حكمها مختص بالله تعالى ورسوله. وتخصيصها علم بفعل الرسول، فإن فعله حجة كقوله. وفي الكشف^(٢): أن حكمها مختص بهما، الله حاكم، والرسول منفذ.

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من فعل كذا فله كذا. فتسارع الشبان فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم. وبقي الشيوخ والوجوه تحت الرايات. فلما كانت الغنيمة جاء الشبان يطلبون نفلهم. فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداء، أي: عوناً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا. وجرى التشاجر بينهم، فنزلت. فقسم رسول الله ﷺ النفل بينهم بالسوية.

وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت له: إن الله قد شفى صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: ليس لي هذا ولا لك. فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال، فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي، فاذهب فخذ.

وقال عبادة بن الصامت: اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزع الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ، فقسمه بيننا على السواء. فخطبنا بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة في الأنفال ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال

(١) الأنفال: ٤١، وسيأتي تفسيرها في ص: ٤٢.

(٢) الكشف: ٢: ١٩٥.

التي بينكم من المنازعة بالمحابة والائتلاف، والمساعدة والمواساة فيما رزقكم الله تعالى، وتسليم أمره إلى الله والرسول.

وقال الزجاج: «ذات بينكم» أي: حقيقة وصلكم، ومنه: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾^(١) أي: وصلكم واجتماعكم على أوامر الله.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك. أو إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بطاعة الأوامر، والانتفاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

ثم بين صفة خالص المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ ذكر عندهم عقوبته وعدله، ووعيده على المعاصي بالعقاب، واقتداره عليه ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرغت لذكره تهيباً من جلاله، واستعظماً

له. وأما إذا ذكرت نعمة الله على عباده، وإحسانه إليهم، وفضله ورحمته عليهم، وثوابه على الطاعات، اطمأنت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١)، وسكنت نفوسهم إلى عفو الله، فلا تنافي بين الآيتين.

وقيل: هو الرجل يهّم بمعصية فيقال له: اتق الله، فينزِع عنها خوفاً من عقابه.

﴿وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أي: ازدادوا يقيناً وطمأنينة نفس وتصديقاً بها، منضماً إلى يقينهم بما أنزل قبل ذلك من القرآن، كما روي عن ابن عباس أنّ المعنى زادتهم تصديقاً مع تصديقهم بما أنزل إليهم قبل ذلك. يعني: أنهم يصدّقون بالأولى والثانية والثالثة، وهكذا فكلّ ما يأتي من عند الله فيزداد تصديقهم كميّة لا كيفيّة، لأنّ الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان عندنا.

وقيل: إنّ المراد ازدياد الايمان، لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلّة، أو بالعمل بموجبها. وهو قول من قال: إنّ الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناءً على أنّ العمل داخل فيه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلّا إياه.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إنّما خصّ فرض الصلاة والزكاة بالذكر لعظم شأنهما، وتأكد الأمر فيهما.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستجمعون لهذه الخصال الحميدة ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هم الذين استحقّوا إطلاق اسم الإيمان حقيقة عليهم، لأنّهم حقّقوا إيمانهم، بأن ضمّوا

إليه مكارم أعمال القلوب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي المعيار عليها، من الصلاة والصدقة. و«حقاً» صفة مصدر محذوف، أي: إيماناً حقاً. أو مصدر مؤكد للجمله التي هي «أولئك هم المؤمنون» كما تقول: هو عبدالله حقاً، أي: حق ذلك حقاً.

﴿لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ شرف وكرامة وعلو منزلة. وقيل: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لما فرط منهم من السيئات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: حظٌ عظيم أعد لهم فيها على سبيل التعظيم لا ينقطع عدده، ولا ينتهي أمده. وهذا معنى الثواب.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الكاف في محلّ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك. والمعنى: أن حالهم في كراهة ما حكم الله في الأنفال، مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للحرب.

ويجوز أن يكون في محلّ النصب، على أنه صفة لمصدر الفعل المقدّر في قوله: «الأنفال لله والرسول» أي: الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك مع كراهتهم، يعني: من المدينة، لأنها مهاجرة ومسكنه، أو بيته فيها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه. وسبب كراهتهم أن غير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راکباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقّي العير، لكثرة المال وقلة الرجال.

فلما خرجوا بلغ أهل مكة خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل

مكة النجاء^(١) النجاء على كل صعب وذلول، غيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة أخت العباس بن عبدالمطلب رؤيا قبل ذلك بثلاث ليال، فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً، رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق^(٢) بها، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدث بها العباس، فقال أبو جهل: ما يرضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تنبأ نساؤهم. وبرواية أخرى قال: هذه نبية ثانية من بني عبدالمطلب.

فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فليل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكة. فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمر، ونقيم القينات^(٣) والمعازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يصب العير، وإننا قد أعرضناه^(٤). فمضى بهم إلى بدر. وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة.

ونزل جبرئيل فقال: يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشاً. فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: ما تقولون: إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟

(١) أي: أسرعوا أسرعوا.

(٢) أي: رمى بها إلى فوق.

(٣) أي: المغنيات، والواحدة: قينة.

(٤) في الصحاح (٣: ١٠٩١ - ١٠٩٢): «أعرضته الشيء فعرضه. ويقال: أعرضته سيفي، أي: ضربته به».

قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو.

فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم ردّد عليهم فقال: إِنَّ العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل.

فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو.

فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر وقالوا فأحسنّا.

ثم قام سعد بن عبادَة فقال: أنظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبيين^(١) ما تخلف عنك رجل من الأنصار.

ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فإنّا معك حيث ما أحببت، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إِنّا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف. فضحك رسول الله ﷺ.

ثم قال: أشيروا عليّ أيّها الناس وهو يريد الأنصار، لأنّهم كانوا عدده، وقد قالوا له حين بايعوه على العقبة: إِنّا برآء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان النبي ﷺ يتخوّف أنّ الأنصار لا يروا نصرته إلّا على عدوّ دهمه بالمدينة.

فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنّك تريدنا يا رسول الله ؟
قال: أجل.

قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ. وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما

(١) في الصحاح (٥: ٨٢-٢): «أبيّن اسم رجل نسب إليه عدن، يقال: عدن أبيين».

(٢) المائدة: ٢٤.

أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء. فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح. فقال له النبي ﷺ: لم؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك.

وكانت تلك الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَأَنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وهو في موقع الحال، أي: أخرجك في حال كراهتهم خروجك من بيتك إلى حرب مشركي مكة في بدر.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ ينازعونك في إشارك الجهاد بإظهار الحق، لا يشارهم تلقى الغير عليه. ﴿بَعْدَ مَا قَبِلْنَاهُ﴾ لهم أنهم ينصرون أينما توجهوا، وذلك بإعلام الرسول. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للغير، وهلا قلت لنا لنستعد وتأهب؟ وذلك لكراهتهم القتال.

ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يجذب إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، فقال: ﴿كَأَنَّمَا يُسِاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه. وكان ذلك لقلّة عددهم، وعدم تأهبهم، إذ روي أنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان. وفيه إيماء إلى أن مجادلهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ إما النفير أو العير. وهذا على إضمار «اذكر». و«إحدى» ثاني مفعولي «يعدكم»، وقد أبدل منها قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل الاشتمال ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني: العير، فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، ولذلك يمتنونها، ويكرهون الطائفة التي هي ذات الشوكة، لكثرة

عددهم وعدّتهم. والشوكة الحدة، مستعارة من واحدة الشوك.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أن يشبته. أي: يعزّز الاسلام ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾
بآياته المنزلة في محاربتهم، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ﴿وَيَقْطَعُ ذَايِرَ الْكَافِرِينَ﴾
باستئصالهم وقتلهم وأسرههم وطرحهم في قليب بدر. والداير: الآخر، من: دبر إذا
أدبر. وقطع الداير عبارة عن الاستئصال.

والمعنى: أنكم تريدون الفائدة العاجلة، ولا تريدون مكروهاً، والله يريد ما
يرجع إلى علوّ أمور الدين وإظهار الحقّ، وما يحصل لكم من فوز الدارين، فشتان
ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوّتهم، وغلبكم
عليهم مع كثرتهم وقتلهم، فأذلّهم وأعزّكم.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلّق بمحذوف، تقديره: فعل ذلك لتثبيت دين الحقّ
﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي: الشرك. وليس بتكرير، لأنّ الأوّل لبيان المراد، وما بينه
وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار
ذات الشوكة ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُفْجِرُونَ﴾ ذلك.

روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ
أَلْفٌ، وَإِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَمَدَّ يَدَهُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ
أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالِ يَهْتَفُ
كَذَلِكَ حَتَّى سَقَطَ رِءَاؤُهُ مِنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وهذا
بدل من «إِذْ يَدْعُوكُمْ»، أو متعلّق بقوله: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ»، أو على إضمار «اذكر».

وقيل: استغاثتهم أنّهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي
ربّ انصرنا على عدوّك، أغثنا يا غياث المستغيثين.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغاثكم وأجاب دعوتكم ﴿أَنْتَ مُمِدُّكُمْ﴾ بأنّي مددكم،
فحذف الجارّ وسلط عليه الفعل.

وقرأ أبو عمرو بالكسر^(١) على إرادة القول، أو إجراء «استجاب» مجرى

«قال»، لأنَّ الاستجابة من القول.

﴿بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ﴾ عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، قد أَرخُوا أذنابها بين أكنافهم ﴿مُزْدِفِينَ﴾ متبعين المؤمنين، أو متبعين بعضهم بعضاً، من: أَرَدَفْتَهُ إِذَا جِئْتَ بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين، من: أَرَدَفْتَهُ إِتَاءَ فَرْدِهِ. وقرأ نافع ويعقوب: مَرْدَفِينَ بفتح الدال، أي: مَتَّبِعِينَ أو مَتَّبِعِينَ، بمعنى: أَنَّهُمْ كَانُوا مَقْدَمَةَ الْجَيْشِ أو سَاقَتِهِمْ.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمدادكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِيَتَطَمَّئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزول ما بها من الوجَل، لَقَلَّتْكُمْ وَذَلَّتْكُمْ ﴿وَمَا النُّصْرُ﴾ بالملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فينصر من يشاء، قلَّ العدد أم كثر ﴿إِنَّ اللَّهَ غَزِيْرٌ﴾ لا يمنع عن مراده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، يجريها على ما تقتضيه الحكمة. وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوهما وسائط، فلا تحسبوا النصر منها حقيقة، ولا تيأسوا منه بفقدها.

واختلف في أَنَّ الملائكة هل قاتلت يوم بدر أم لا؟ فقليل: ما قاتلت ولكن شجعت وكثرت سواد المسلمين وبشّرت بالنصر، وإلّا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا كلّهم، فإنَّ جبرئيل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة.

وقيل: إنَّها قاتلت. وروي عن ابن مسعود أَنَّهُ سَأَلَهُ أَبُو جَهْلٍ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيَا الضَّرْبَ وَلَا نَرَى الشَّخْصَ؟ فَقَالَ: مِنْ قَبْلِ الْمَلَائِكَةِ. فَقَالَ: هُمْ غَلَبُونَا لَا أَنْتُمْ. وعن ابن عباس أيضاً: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَاتَلَتْ يَوْمَ بَدْرٍ. وفي رواية: قَاتَلَتْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ تَقَاتِلْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ وَيَوْمَ حَنْينٍ.

وروي: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَمَا هُوَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ ضَرْبَةٍ بِالسُّوْطِ فَوْقَهُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ قَدْ خَرَّ مُسْتَلْقِيًا وَشَقَّ وَجْهَهُ، فَحَدَّثَ الْأَنْصَارِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ.

وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر، فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي.

وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ بدل ثانٍ من «إِذْ يَعْذِيبُكُمُ اللَّهُ»، أو متعلق بالنصر، أو بما في «عند الله» من معنى الفعل، أو يجعل «أو» بإضمار «اذكر».

وقرأ نافع بالتخفيف، من: أغشيت الشيء إذا غشيت به. والفاعل على القراءة ثين هو الله تعالى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ بالرفع.

﴿أَمَنَةٌ مِنْهُ﴾ أمانة من الله تعالى. وهو مفعول له باعتبار المعنى، فإن قوله «يغشاكم النعاس» متضمن معنى: تتعسون، و«يغشاكم» بمعناه، فيكون فاعل الفعل المعلل والعلّة واحداً. و«منه» صفة لـ «أمنة». والمعنى: إذ يتغشون لأنكم الحاصل من الله بإزالة الرعب من قلوبكم، فإنّ الإنسان لا يأخذه النوم في حال الخوف، فأمنهم الله تعالى بزوال الرعب عن قلوبهم، كما يقال: الخوف مسهر، والأمن منيم. والأمنة الدعة التي تنافي المخافة.

وعن ابن عباس: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة الشيطان.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الحدث والجنابة ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رَجَزُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: الجنابة، لأنّه من تخييله أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش، وذلك أنّ المشركين قد سبقوهم إلى الماء، ونزل المسلمون في كتيب^(١) أعر تسوخ فيه الأقدام، وناموا فاحتلم أكثرهم، فتمتّل لهم إبليس وقال: يا أصحاب محمد أنتم تزعمون أنّكم على الحق، وأنتم تصلّون على الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على حقّ ما غلبكم هؤلاء على الماء، وهاهم الآن يمشون إليكم، فيقتلونكم ويسوقون بقيتكم إلى مكّة. فحزنوا لذلك، فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً حتّى جرى

(١) الكتيب: التلّ من الرمل.

الوادي، واغتسلوا وتوضّؤوا، واتخذوا الحياض على عدوة^(١) الوادي، وتلبّد^(٢) الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتّى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان، وطابت النفوس.

﴿وَلِيَزْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وليشدّ عليها. ومعناه: يشجّع قلوبكم، ويزيدكم قوة قلب وسكون نفس، والثقة على لطف الله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي: بالمطر حتّى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتّى تثبت في المعركة، فإنّ الجراءة تثبت القدم في مواطن الحرب.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ بدل ثالث، أو متعلّق بـ«يثبت» ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعاتتهم وتثبيتهم. وهو مفعول «يوحى»، ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ أَمْنُوا﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمجاهدة أعدائهم.

وقوله: ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كال تفسير لقوله: «أنّي معكم فثبتوا». ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفّار، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعاليها التي هي المذابح، لأنّها مفصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزناً وتطييراً للرؤوس، لأنّها فوق الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع، أي: حرّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم من اليدين والرجلين، فإنّ الضرب إمّا واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً.

وفيه دليل على أنّهم قاتلوا. ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين، إمّا على تغيير الخطاب، أو على أنّ قوله: «سألقى» إلى قوله: «كلّ بنان» تلقين للملائكة ما يثبتون المؤمنين به، كأنّه قال: قولوا لهم قولي هذا. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من القتل أو الأمر به. والخطاب في «ذلك»

(١) العدو: المكان المتباعد، أو المرتفع.

(٢) تلبّد الرمل أي: تجمّع ولصق بعضه ببعض.

لِلرَّسُولِ، أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ قَبْلُ ﴿يَأْتُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ذلك العقاب العاجل أو أمر الملائكة به بسبب مشاققتهم ومخالفتهم لهما. واشتقاقه من الشَّقَّ، لأنَّ كلاً من المعاندين في شَقٍّ خلاف شَقِّ الآخر، كالمعاداة من العدو بمعنى الجانب، والمخاصمة من الخصم، وهو أيضاً الجانب.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات. ومحله الرفع، أي: الأمر ذلكم، أو ذلكم واقع، أو نصب بفعل دلَّ عليه قوله: ﴿فَذَوْقُوهُ﴾ أو غيره، مثل: باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطف على «ذلكم»، أو نصب على المفعول معه. والمعنى: ذوقوا ما عَجَّلَ لكم مع ما أَجَلَ لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أنَّ الكفر سبب العذاب الآجل، أو الجمع بينهما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

ولما أمدَّ سبحانه المسلمين بالملائكة، ووعدهم النصر والظفر بالكفار، نهاهم عقيبهِ عن الفرار، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾

متزاحفين . حال من «الذين كفروا» . والزحف: الجيش الدهم^(١) الذي يرى لكثرة كانه يزحف، أي: يدب ديباً، من: زحف الصبي إذا دب على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر . والجمع زحوف . والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل . ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْآذِينَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين من العدو .

ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل والمفعول، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا . أو حال من الفاعل، كأنهم أخبروا بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف اثنا عشر ألفاً .

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفرّ، يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكائدها . أو يكون التحرف لأجل إصلاح لأمته^(٢) وسائر اسلحته ﴿أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أو منحاذاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم . وانتصابهما على الحال، و«إلا» لغو لا عمل لها . أو على الاستثناء من المولين، أي: ومن يؤلهم إلا رجلاً منهم متحرِّفاً أو متحيزاً . ووزن متحيز متفعل لا متفعل، لأنّه من: حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز .

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَیْهُ جَهَنَّمُ وَفِیْهَا النَّفِیْرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾^(٣) الآية .

وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب .

وعن ابن عباس: أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر .

روي أنه لما طلعت قريش من العقنقل قال ﷺ داعياً لله تعالى: هذه قريش

(١) الدهم: العدد الكثير .

(٢) اللأمة: الدرع .

(٣) الأنفال: ٦٦ .

جاءت بخيلاتها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني. فأتاه جبرئيل وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام: أعطني قبضة من حصاء الوادي، فأعطاه فرمى بها في وجوههم، وقال: شأهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهمزوا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتلت وأسرت، فنزلت: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بإنزال الملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم. ﴿وَمَا زَمَيْتُ﴾ يا محمد رمية توصلها إلى أحداقهم، ولم تقدر عليه ﴿إِذْ زَمَيْتُ﴾ أي: أتيت بصورة الرمي ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ زَمَى﴾ أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا، وتمكنت من قطع دابرهم. وهذا من عجائب المعجزات. واللفظ كما يطلق على المسمى، يطلق على ما هو كماله والمقصود منه.

وقيل: معناه: ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصاء، ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم.

وقيل: إنه نزل في طعنة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم، فجعل يخور حتى مات. أو في رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه. وأكثر المفسرين على القول الأول.

وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي: ولكن بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين.

﴿وَلِيُذِيقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءَ حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة من ذلك النصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، أو من عنده تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم

ودعائهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بنيتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي. ومحله الرفع، أي: الغرض أو الأمر ذلكم. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه، أي: المقصود إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: موهن بالتشديد، وحفص: موهن كيد بالإضافة والتخفيف.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

ثم خاطب أهل مكة على سبيل التهكم بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللَّهُمَّ انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين. وبرواية أخرى: اللَّهُمَّ انصر أقرنا للضيف، وأوصلنا للرحم، وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا.

وروي أَنَّ أباجهل قال يوم بدر: اللَّهُمَّ أَيُّنَا كَانَ أَهْجَرُ وَأَقْطَعَ لِلرَّحْمِ فَأَحْسَنَهُ
اليوم، أي: فأهلكه.

﴿وَإِنْ تَنَتَّهَوْا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتضمّنه سلامة
الدارين وخير المنزلتين. وقيل: «إِنْ تَسْتَفْتَحُوا» خطاب للمؤمنين، و«إِنْ تَسْتَنْهَوْا»
للكافرين. ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربتة ﴿نَعُذْ﴾ لنصره ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع
﴿عَنْكُمْ فَنُتَكِّمُ﴾ جماعتكم ﴿شَيْنًا﴾ من الإغناء أو المضارَّ ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فُتُكُم
﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: وَأَنَّ بِالْفَتْحِ، على تقدير: وَلَأنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
كان ذلك.

وقيل: الآية خطاب للمؤمنين. والمعنى: إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النِّصْرُ،
وإِنْ تَتَنَهَّوْا عَنِ التَّكَاسُلِ فِي الْقِتَالِ وَالرَّغْبَةِ عَمَّا يَسْتَأْثَرُهُ الرَّسُولُ ﷺ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا إِلَيْهِ نَعْدُ عَلَيْكُمْ بِالْإِنْكَارِ أَوْ تَهْيِيجِ الْعَدُوِّ، وَلَنْ تُغْنِيَ حِينَئِذٍ كَثَرَتُكُمْ
إِذَا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَعَكُمْ بِالنَّصْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْكَامِلِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ.

ويؤيد ذلك أمر الله سبحانه المؤمنين بالطاعة التي هي سبب النِّصْرَةِ،
ونهيهم عن التَّوَلَّى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بعد تلك الآية، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَافِيًا﴾ أي: لَا تَتَوَلَّوْا عَنِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ
بِالْآيَةِ الْأَمْرَ بِطَاعَتِهِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ. وَذَكَرَ طَاعَةَ اللَّهِ لِلتَّوَلُّوْةِ وَالتَّنْبِيهِ
عَلَى أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ، لقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ
اللَّهَ﴾^(١).

وقيل: الضمير للجهد، أو للأمر الذي دلَّ عليه الطاعة.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواظ سماع فهم وتصديق.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة أو المنافقين الذين ادعوا السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به، لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم لا يسمعون رأساً.

والمعنى: أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور - من قسمة الغنائم وغيرها - كان تصديقكم كلاً تصديق، واشبه سماعكم سماع من لا يؤمن به.

ثم قال ذمّاً للمعرضين عن أمر الله ورسوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: شرّ ما يدبّ على الأرض، أو شرّ البهائم ﴿الصُّمُّ﴾ عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن قراءته ﴿الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً منه. عدّهم من البهائم أولاً ثم جعلهم شرّها، لإبطالهم ما ميّزوا به وفضلوا لأجله، وهو العقل.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصمّ البكم ﴿خَيْرًا﴾ انتفاعاً باللفظ ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ للطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: ولو لطف بهم وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَقَوْلُوا﴾ عنه ولم ينتفعوا به. أو ولو لطف بهم فصّدقوا لارتدّوا بعد التصديق والقبول، وكذبوا فلم يستقيموا ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لعنادهم. وفي هذا دلالة على أنه سبحانه لا يمنع أحداً اللطف، إذا علم أنه ينتفع به. وقال الباقر عليه السلام: «بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد بن حرملة». وكانوا يقولون: نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمد صلى الله عليه وآله، وقد قتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء.

وقيل: قالوا للنبي: أحي لنا قصيًّا، فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك فنؤمن بك. فالمعنى: لأسمعهم كلام قصي.

وعن ابن جريج: هم المنافقون. وعن الحسن: هم أهل الكتاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً
لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

ثم أمر سبحانه عباده بطاعة رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والامتثال ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وخد الضمير فيه لما سبق، ولأن دعوة
الله تسمع من الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية والأحكام الشرعية، فإنها
حياة القلب، والجهل موته، قال:

لَا تَعَجِبَنَّ الْجَهْلُ حَلَّتْهُ فَذَلِكَ مِيتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنٌ

أو ممّا يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم، من العقائد الحسنة المرضية
والأعمال السنية. أو من الجهاد، فإنه سبب بقاء المؤمنين، إذ لو تركوه لغلبهم العدو
وقتلهم. أو الشهادة، لقوله: ﴿بَلْ أَخْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾^(١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد، كقوله:
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢)، فإن الحائل بين الشيء وغيره أقرب إلى ذلك
الشيء من ذلك الغير. وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب وضمائرها، ممّا
عسى يغفل عنه صاحبها، فكأنه بينه وبين قلبه.

أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى
بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة.
أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه، فيفسخ عزائم، ويغيّر مقاصده،

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) ق: ١٦.

وبيدله بالخوف أمناً، وبالأمن خوفاً، وبالذكر نسياناً، وبالنسيان ذكراً، وما أشبه ذلك مما هو جازر عليه تعالى. ومنه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «عرفت الله بفسخ العزائم». وما جاء في الدعاء: يا مقلب القلوب.

وروى يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه» معناه: لا يستيقن القلب أنَّ الحقَّ باطل أبداً، ولا يستيقن القلب أنَّ الباطل حقَّ أبداً.

وروى هشام بن سالم عنه قال: «معناه: يحول بينه وبين أن يعلم أنَّ الباطل حقَّ». وأوردهما العياشي في تفسيره^(١).

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتقوا ذنباً يعصمكم أثره، كترك النهي عن المنكر، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وإظهار البدع، والتكاسل في الجهاد. وقيل: الفتنة العذاب.

وقوله: «لا تصيبن» لا يخلو: إما أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر معطوفاً عليه بحذف الواو، أو صفة لـ«فتنة».

فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، بل تعمكم. وإنما جاز دخول النون في جواب الشرط، مع أنه متردد لا يليق به النون المؤكدة، لأنَّ فيه معنى النهي فساغ، كقوله: ﴿انْخَلُوا مَسَاجِدَكُمْ لَا يُخْطِفَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾^(٢)، وكما تقول: إنزل عن الدابة لا تطرحك، ويجوز، لا تطرحنك.

وإذا كانت نهياً - بعد أمر بإتقاء الذنب - عن التعرض للظلم، فإنَّ وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه. فكأنه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا

(١) تفسير العياشي ٢: ٥٢ ح ٣٦ و ٣٩.

(٢) النمل: ١٨.

للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة. وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها: لا تصيبن. ونظيره قوله: حتى إذا جرن الظلام واختلط جاءوا بمدق هل رأيت الذئب فط والمدق اللبن المخلوط بالماء. والمعنى: بمدق مقول فيه هذا القول، لأن فيه لون الورقة^(١) التي هي لون الذئب. ويعضده قراءة ابن مسعود: لتصيبن، على جواب القسم المحذوف، ويكون «من» للتبيين على هذا، لأن المعنى: لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم، لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس، وللتبويض على الوجه الأول. وفي الكشف: «روي عن الحسن: أنها نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير، وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير: نزلت فينا قرأناها زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها».

وروي: أن الزبير كان يساير رسول الله ﷺ يوماً، إذ أقبل عليٌّ عليه، فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله: كيف حبك لعلي؟ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني أحبه كحبي لوالدي أو أشد حباً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله؟^(٢) وقال في المجمع^(٣): «روى الثعلبي بإسناده عن حذيفة أنه قال: أتتكم فتن كقطع الليل المظلم، يهلك فيها كل شجاع بطل، وكل ركب موضع، وكل خطيب مصقع^(٤)».

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال لعمار: «إنه سيكون بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضاً، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي بن أبي طالب،

(١) الورقة: سواد في غبرة، والأورق: الذي لونه لون الرماد.

(٢) الكشف ٢: ٢١٢.

(٣) مجمع البيان ٤: ٥٣٤.

(٤) ركب موضع أي: مسرع، والمصقع: البليغ.

فإن سلك الناس كلهم وادياً وسلك عليّ وادياً فاسلك وادي علي، وخلّ عن الناس. يا عتار إنّ عليّاً لا يردك عن هدى، ولا يدلك على ردى. يا عتار طاعة عليّ طاعتي، وطاعتي طاعة الله»^(١). رواه السيّد أبو طالب الهروي بإسناده عن علقمة والأسود عن أبي أيوب الأنصاري.

وفي كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني رحمه الله، وحدثنا عنه السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني، حدّثني محمد بن القاسم ابن أحمد، قال: حدّثني أبو سعيد محمد بن الفضيل بن محمد، قال: حدّثنا محمد ابن صالح العرزمي، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، قال: حدّثنا أبو سعيد الأشج، عن أبي خلف الأحمر، عن إبراهيم بن طهمان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيّب، عن ابن عباس قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ ظَلَمَ عَلِيّاً مَقْعَدِي هَذَا بَعْدَ وَفَاتِي، فَكَأَنَّمَا جَحَدَ نَبُوتِي وَنَبُوءَةَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»^(٢).

وعن ابن عباس: أنّه سئل عن هذه الفتنة فقال: أبهموا ما أبهم الله. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتق المعاصي والمظالم.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَتَمُّ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطِّبْيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ثم عاد سبحانه إلى وقعة بدر، وبين حالتهم السالفة في القلّة والضعف، وإنعامه عليهم بالنصر والتأييد والتكثير، فقال ﴿وَاذْكُرُوا﴾ معشر المهاجرين ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي: وقت كونكم أقلّة أدلّة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكّة.

(١) مجمع البيان ٤: ٥٣٤.

(٢) شواهد التنزيل ١: ٢٧١ ح ٢٦٩.

يستضعفكم قريش قبل الهجرة. و«إذ» هنا مفعول به، وليس بظرف لـ «مستضعفون». وقيل: الخطاب للعرب، كانوا أذلاء في أيدي الفرس والروم.

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يستلبكم كفّار قريش إن خرجتم من مكّة، أو من عداهم، فإنّهم كانوا جميعاً معادين مضادين لهم.

﴿فَأَوَّكُنْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تحصّنون به عن أعاديكم ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنُصْرِهِ﴾ وقوّاكم على الكفّار بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَزَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم.

وعن قتادة: كانت العرب أذلّ الناس وأشقاهم عيشاً، وأعراهم جلدأً، يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد، ووسّع عليهم في الرزق والغنائم، وجعلهم ملوكاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام. فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ.

فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة. وكان مناصحاً لهم، لأنّ عياله وماله وولده كانت

عندهم.

فبعثه رسول الله، فأتاهم. فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أنّه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أنّي قد خنت الله ورسوله. فنزلت في شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ من الخون، وهو النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام. ومنه: تخونه، أي: تنقصه، ثمّ استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنّك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

والمعنى: لا تخونوا الله بترك أوامره، والرسول بترك سننه وشرائعه.

وعن الحسن: أنّ من ترك شيئاً من الدين وضيعه فقد خان الله ورسوله.

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ ولا تخونوا الأمانات فيما بينكم، بأن لا تحفظوها.

وهو مجزوم بالعطف على الأوّل، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون. أو أنتم علماء تميّزون الحسن من القبيح. أو أنتم تعلمون ما في الخيانة من الذمّ والعقاب.

ولما نزلت هذه الآية شدّ أبو لبابة نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتّى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيّام لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً، حتّى خرّ مغشياً عليه، ثمّ تاب الله عليه. فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتّى يكون رسول الله هو الذي يحلّني، فحلّه بيده.

ثمّ قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها

الذنب، وأن انخلع عن مالي. فقال النبي: يجزيك الثلث أن تصدق به.

وهذه الرواية مروية أيضاً عن الكلبي والزهري.

وقال عطاء: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرئيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم. فأنزل الله هذه الآية.

وقال السدي: كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت.

وقيل: المراد بالخيانة الغلول في الغنائم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الائم أو العقاب، أو محنة من الله تعالى ليلوكم فيهم، فلا يحملنكم حنهم على الخيانة، كأبي لبابة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر رضا الله تعالى عليهم، وراعى حدوده فيهم، فعليكم أن تزهّدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الأولاد، ولا تؤثرهما على نعيم الأبد.

قال في المجمع: «بين سبحانه بهذه الآية أنه يختبر خلقه بالأموال والأولاد، ليتبين الراضي بقسمه ممن لا يرضى به، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن ليظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب. وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة. لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ». وقد روي هذا المعنى عن ابن مسعود أيضاً»^(١).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ولما أمر الله سبحانه بالطاعة وترك الخيانة، بين بعده ما أعدّه لمن امتثل أمره في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ إن تتقوا عقابه باتقاء معاصيه وأداء فرائضه ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هداية ونوراً في قلوبكم، وشرحاً في صدوركم بوسيلة التوفيق واللفظ، تفرّقون به بين الحقّ والباطل، أو نصراً وفتحاً، كقوله تعالى ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(١) لآنه يفرّق بين المحقّ والمبطل، بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة عمّا تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يشهر أمركم في أقطار الأرض ويبثّ صيتكم، من قوله: بئّ أفعل كذا حتّى سطع الفرقان، أي: الصبح.

﴿وَيُكَفِّرْ﴾ ويستر ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم بالتجاوز والعفو عنها. قيل: السيئات الصغائر، والذنوب الكبائر. وقيل: المراد ما تقدّم وما تأخّر، لأنّها في أهل بدر، وقد غفرهما الله تعالى لهم.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على خلقه بما أنعم عليهم في الدنيا من أنواع النعم من غير سبق استحقاق منهم، وفي الآخرة بما زاد على قدر استحقاقهم.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

روي أن قريشاً - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - خافوا أن يعلو أمره ويعظم

شأنه، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة، دخلت مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً.

فقال أبو البختری: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه غير كوة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون.

فقال إبليس: بئس الرأي، يأتیکم من یقاتلکم من قومه ویخلصه من أيديکم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهرکم، فلا یضركم ما صنع واسترحتم.

فقال إبليس: بئس الرأي، یفسد قوماً غیرکم ویقاتلکم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من کل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً صارماً، فیضربوه ضربة رجل واحد، فیتفرق دمه فی القبائل، فلا یقوى بنو هاشم علی حرب قریش کلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. فقال الشيخ: هذا الفتی هو أجودکم رأياً.

فتفرقوا علی رأي أبي جهل مجتمعين علی قتله. فأخبر جبرئیل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره بالهجرة وأن یبیت فی مضجعه علیاً، فنام فی مضجعه، وقال له: اتشح ببردي، فإنه لن یصل إلیک أمر تکرهه، وخرج مع أبي بكر إلی الغار. وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ساروا إلی مضجعه فأبصروا علیاً فبهتوا، وخیب الله سعيهم، واقتصوا أثره، وأرسلوا فی طلبه، فلما بلغوا الجبل ومروا بالغار رأوا علی بابہ نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم یکن نسج العنكبوت علی بابہ. فمكث فیہ ثلاثاً، ثم قدم المدينة، فأبطل الله تعالى مكرهم.

فذكر ﷺ هاهنا رسوله إنجاءه إياه من مكرهم حين كان بمكة، ليشكر الله علی خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُؤُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اذكر إذ يحتال كفار قريش في إبطال أمرک، ويدبرون في هلاكك ﴿بِئْتَبُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس أو الإتيان بالجرح، من قولهم: ضربه حتى أثبتة لآحراك به ولا

براح^(١). والأول مروى عن ابن عباس. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوهم وخناجرهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد لك ﴿وَيَعْمُرُونَ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغته. أو المراد بمكر الله مجازاته إيتاهم على مكرهم، أو معاملته معهم معاملة الماكرين. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً. أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل. وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة، أو لضرب من التأويل. ولا يجوز إطلاقها ابتداءً، لتضمنه القبح والذم، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن عناد هؤلاء الكفار في الحق، فقال: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص. قائله النضر بن الحارث بن كلدة، فإنه حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون، قال: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار، فزعم أن هذا مثل ذلك، وأنه من جملة الأساطير. وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم.

وقيل: هو قول الذين اتهموا في أمره ﷺ. وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم عن أن يقولوا مثله؟! وقد تحداهم وقرعهم

(١) أي: لم يبرح ولم يزل من مكانه.

بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة، مع أنفثتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً في باب البلاغة والفصاحة.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ مُنْزَلاً ﴿مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِبَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: حجارة من سجيل عقوبة على إنكاره، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ﴾ بنوع آخر من أنواع العذاب.

هذا أيضاً من كلام النضر. روي أنه لما قال: «إن هذا إلا أساطير الأولين» قال له النبي ﷺ: ويلك إنه كلام الله. فقال ذلك. ومراده من هذا القول التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال عنده، كما في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة.

وفائدة تعريف الحق الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ، وهو تنزيهه، لا الحق مطلقاً، لتجوزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل، كأساطير الأولين.

روي أن معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة!! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله حين دعاهم إلى الحق: «إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة» ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُشْكُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

ثم ذكر سبحانه سبب إمهالهم، وموجب التوقف في إجابة دعائهم، مع فرط

عنادهم وشقاقهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادة الله تعالى، غير مستقيم في قضائه، لفضله وحرمة. قال ابن عباس: إن الله تعالى لم يعذب قومه حتى أخرجوه من مكة. وكذا لا يعذبهم حين الاستغفار عن الذنوب، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين بعد خروجه ﷺ عن مكة، كما روي أن النبي ﷺ لما خرج من مكة بقيت فيها بقية من المؤمنين، ولم يهاجروا لعذر، وكانوا على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفارهم، فلما خرجوا أذن الله في فتح مكة.

وهذا منقول عن ابن عباس وعطية والضحاك. واختاره الجبائي.

وقيل: معناه: وما كان الله ليعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا وهم يقولون: اللهم غفرانك، وإنما يعذبهم في الآخرة. أو المراد فرض الاستغفار على معنى: لو استغفروا لم يعذبوا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُظْهِرَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١) أي: لو أصلحوا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ وما يمنع تعذيبهم متى لم تكن فيهم، ولم يمكن الاستغفار؟ وكيف لا يعذبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؟ وحالهم صد الناس عنه، ومن صدهم عنه إلقاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة، وإحصارهم عام الحديبية. روي أنهم قالوا: نحن ولاية البيت والحرم، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْفَاقُونَ﴾ من الشرك، الذين لا يعبدون فيه غير الله تعالى. أو إلا المتفنون من

المسلمين، فليس كلّ مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، بل إنّما يستأهل ولايته من كان براً تقيّاً، فكيف بالكفرة وعبدّة الأصنام؟

﴿وَلَكِنْ أَخْذَرُهُمْ لَا يَعْظُمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه. كأنّه استثنى من كان يعلم ويعاند لطلب الرئاسة. أو أراد بالأكثر الجميع، كما يراد بالقلّة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

روي أنّهم كانوا يطوفون عراة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يستأمنونه صلاة، أو ما يضعون موضعها ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صغيراً، من: مكا يمكو إذا صفر ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ تصفيقاً. وهو ضرب اليد على اليد. تفعلة من الصدى، أو من: صدّ يصدّ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(١) أي: يصيحون، على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء.

واعلم أنّ مساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنّها لا تليق بمن هذه صلاته.

وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، لما روي أنّ النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران، ورجلان عن يساره يصفقان بأيديهما، فيخلطان عليه صلاته، فقتلهم الله جميعاً بدر، كما قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني: القتل والأسر يوم بدر. وقيل: عذاب الآخرة. واللام يحتمل أن تكون للعهد، والمعهود: اثنا بعذاب أليم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

روي أن أبا سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش، وهم فرق مختلفون من قبائل شتى، ومنه يقال: عندي أحبوش منهم، أي: جماعة منهم، سوى من استجاش^(١) من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً، أو استأجرهم لأصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد ﷺ، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليمنعوا بذلك الناس عن دين الله الذي أتى به محمد ﷺ. وقيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا إثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر^(٢). وغرضهم في هذا الإنفاق الصد عن اتباع محمد، وهو سبيل الله.

وإنما قال: ليصدوا، وإن كانوا لم يقصدوا ذلك، من حيث لم يعلموا أن ذلك دين الله، لأن فعلهم ذلك كان صدّاً عن دين الله وإن لم يقصدوا ذلك. ﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ويحتمل أن يكون الأول إخباراً عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق يوم بدر، والثاني إخباراً عن إنفاقهم فيما يستقبل، وهو الإنفاق في يوم أحد. أو يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق.

(١) أي: جمع الجيش منهم.

(٢) الجزر جمع الجزور، وهو من الإبل يقع على الذكر والأنثى.

ومساق الثاني لبيان عاقبته، وأنه لم يقع بعد.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ ندماً وغمّاً، لفواتها من غير مقصود. وجعل ذاتها حسرة - وهي عاقبة إنفاقها - مبالغة. ﴿ثُمَّ يُغْلِبُونَ﴾ آخر الأمر، وإن كان الحرب بينهم وبين المؤمنين سجّالاً قبل ذلك، أي: مرّة تكون لهم ومرّة عليهم. وفي هذا دلالة على صحّة نبوة النبي، لأنّه أخبر بالشيء قبل كونه، فوجد على ما أخبر به.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ثبتوا على الكفر منهم، إذ أسلم بعضهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ يساقون.

﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: الفريق الخبيث - وهم الكافرون - من الفريق الطيّب، وهم المؤمنون. أو يميز الفساد من الصلاح. واللام متعلّقة بـ«يخشرون» أو «يغلبون»، أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ممّا أنفقه المسلمون في نصرته. وحينئذٍ اللّام متعلّقة بقوله: «ثم تكون عليهم حسرة». وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: ليميّز من التمييز، وهو أبلغ من الميز.

﴿وَيَجْعَلِ الْخَبِيثَ﴾ ويجعل الفريق الخبيث من الكفار ﴿بَغْضَةً عَلَىٰ بَغْضٍ فَيَرْكُضُهُ جَمِيعاً﴾ فيجمعه ويضمّ بعضه إلى بعض حتّى يتراكبوا، لفرط ازدحامهم. أو يضمّ إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، ليعاقبهم به، كما قال: ﴿يَوْمَ يُخْفَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾^(١) الآية. ﴿فَيَجْعَلُهُ﴾ كلّهُ ﴿فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث، لأنّه مقدّر بالفريق الخبيث، أو إلى المنفقين ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران، لأنّهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْهَوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ

لِلَّهِ فَإِنْ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بدعائهم إلى التوبة والإيمان، فقال: ﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه. والمعنى: قل لأجلهم، لقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ على صيغة الغائب، أي: ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من الشرك وعداوة الرسول وسائر ذنوبهم. ومنه قوله ﷺ: «الاسلام يجب ما قبله».

﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ويضمحل كل دين، ويبقى دين الإسلام وحده.

عن الصادق عليه السلام أنه قال: «لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعد سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض».

﴿فَإِنْ اتَّهَمُوا﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب: تعملون بالتاء، على معنى: فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير، فيجازيكم عليه أحسن الجزاء. ويكون تعليقه بانتهائهم دلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة، يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن لم ينتهوا ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فتقوا بولاية الله ونصرته، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوَّةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَقْتُمْ فِي
الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ
مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ
قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَكُمُ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيزِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَعْلَلِكُمْ
فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

وبعد الأمر بالجهاد بين ما يلحقه من حكم الغنيمة، فقال مخاطباً للمسلمين :
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «ما» موصولة، و«من شيء» بيانه، أي: مما يقع
عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيطة، لا في الكنز والمعدن والغوص، فإن
النصاب شرط فيه، كما صرح به فقهاؤنا في كتبهم. فلفظ «شيء» وإن اقتضى
العموم، لكن البيان من الأئمة عليهم السلام خصصه.

والغنيمة لغة: هي الفائدة. واصطلاحاً: ما أخذ من الكفار بقتال، وإلا فهو فيء
ونفل. وهو مذهب أصحابنا والشافعي، ويروى عن الباقر والصادق عليهما السلام. وقيل:

إنهما بمعنى واحد.

ثم إن عند أصحابنا أن الفیء للإمام خاصّة، والغنیمة يخرج منها الخمس، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: فثبت أن الله خمسہ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهذه الأسهم الثلاثة اليوم للإمام القائم مقام الرسول ﷺ ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: ليتامى آل محمد ﷺ ومساكينهم وأبناء سبيلهم، لا يشركهم في ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقة، لكونها أوساخ الناس، وعوضهم عن ذلك الخمس. وروى ذلك الطبري^(١) عن علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً أنه قال: «لما حرم الله علينا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام، والخمس لنا حلال».

وروا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قيل له: «إن الله تعالى قال: «واليتامى والمساكين» فقال: أيتامنا ومساكيننا»^(٢). فثلاثة أسهم آخر للطوائف المذكورين من بني هاشم.

واعلم أيّدك الله تعالى أن علماء الجمهور على أن اسم الله هنا للتبرك، وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المذكورين في الآية في حياة الرسول ﷺ، وأن المراد بذی القربى هم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل، لقوله ﷺ: «إن بني المطلب ما فارقونا في جاهليّة ولا إسلام، وبنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه». وأن الثلاثة الباقية في باقي المسلمين. وأما بعد حياة الرسول ﷺ فقال مالك: الأمر فيه إلى الإمام، يصرفه إلى ما يراه أهمّ من وجوه القرب.

(١) راجع تفسير الطبري ج ١٠: ٧.

(٢) رواه في الكشف ٢: ٢٢٢.

وقال أبو حنيفة: يسقط سهمه ﷺ وسهم ذوي القربى، وصار الكلّ مصروفاً إلى الثلاثة الباقية من المسلمين.

وقال الشافعي: إنّ سهم الرسول ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه الرسول ﷺ إليه من مصالح المسلمين. وقيل: إلى الإمام. وقيل: إلى الأقسام الأربعة.

وقال أصحابنا الإمامية: إنّهُ يقسم ستّة أقسام: ثلاثة للرسول ﷺ في حياته، وبعده للإمام القائم مقامه، وهو المعنيّ بذوي القربى، والثلاثة الباقية لمن سّماهم الله من بني عبدالمطلب خاصّة دون غيرهم.

وقولهم هو الحقّ. أمّا أولاً: فلاّنه لا يلزمهم مخالفة للآية الكريمة بسبب إسقاط سهم الله من البين، وكذا إسقاط سهم الرسول بعد حياته.

وأما ثانياً: فلما ورد من النقل الصحيح عن أئمتنا عليه السلام، وكذا نقله الخصم عن عليّ عليه السلام، وعن ابن عباس، كما حكاه الزمخشري في الكشف^(١).

وأما ثالثاً: فلاّنا إذا أعطينا لفقراء ذوي القربى من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل جاز بالإجماع، وبرئت الذمّة يقيناً، وإذا أعطينا غيرهم لم يجز عند الإمامية، فكان التخصيص بذوي القربى أحوط. ولفظة الآية وإن كانت أعمّ، لكن ما من عامّ إلّا وقد خصّ كما في الأصول، فهذا مخصوص بما رويناه عن أئمة الهدى كما مرّ. على أنّنا نقول لفظه الآية عامّ مخصوص بالاتفاق، فإنّ ذا القربى مخصوص ببني هاشم، واليتامى والمساكين وابن السبيل عامّ في المشرك والذمي وغيرهم، مع أنّه مخصوص بمن ليس كذلك.

قال السيّد^(٢) رحمته الله: كون ذوي القربى مفرداً يدلّ على أنّه الامام القائم مقام

(١) الكشف ٢: ٢٢٢.

(٢) الانتصار: ٨٧.

النبي ﷺ، إذ لو أراد الجمع لقال: ذوي القربى.

وفيه نظر، لجواز إرادة الجنس.

قوله: إذ لو كان المراد جميع قرابات بني هاشم، لزم أن يكون ما عطف عليه - أعني: اليتامى والمساكين وابن السبيل - من غيرهم لا منهم، لأنَّ العطف يقتضي المغايرة.

وأجيب بجواز عطف الخاص على العام، لمزيد فائدة ووفور عناية. فالأولى حينئذ الاعتماد في هذه المحتملات على بيانه ﷺ، وبيان الأئمة بعده.

وفي الآية المذكورة من التوكيد ما ليس في غيرها، فإنَّه صَدَّرها بالأمر بالعلم، أي: تحقِّق عندكم ذلك حتَّى إنَّه لم يرد لها ناسخ اتِّفاقاً. ثمَّ أتى بـ«أنَّ» المؤكِّدة في موضعين. ثمَّ قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو متعلِّق بمحذوف دلَّ عليه «واعلموا» أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنَّه جعل الخمس لهؤلاء، فسَلِّموا إليهم، واقطعوا عنه أطماعكم، واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإنَّ العلم للعمل، فإذا أمر به لم يرد منه العلم المجرَّد، لأنَّه مقصود بالعرض، والمقصود بالذات هو العمل.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ معطوف على «بالله» أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزَّل على عبدنا من الآيات والملائكة والنصرة ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فإنَّه فَرَّقَ فيه بين الحقِّ والباطل ﴿يَوْمَ النَّفْثِ الْجَفَّانِ﴾ المسلمون والكفار، بدل منه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير، والإمداد بالملائكة. عن الكلبي: أنَّها نزلت ببدر. وقال الواقدي: نزل الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيَّام، للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْغُدُوَّةِ الدُّنْيَا﴾ من المدينة. وهو بدل ثانٍ من «يوم الفرقان».

والعدوة بالحركات الثلاث شطّ الوادي. والمشهور الضمّ والكسر. وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ البعدى من المدينة. تأنيث الأقصى. وكان قياسه قلب الواو ياءً، كالدينا والعليا، تفرقة بين الاسم والصفة، فجاء على الأصل شاذاً كالقود، وهو أكثر استعمالاً من القصيا، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و«أُعْيِلَتْ» مع «أُغَالَتْ»^(١).

﴿وَالزُّكْبُ﴾ أي: العير أو قوادها ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم، يعني: الساحل. قال الكلبي: كانوا على شطّ البحر بثلاثة أميال. وهو منصوب على الظرف، واقع موقع خبر المبتدأ، والجملة حال من الظرف قبله.

والفائدة في ذكر هذه المراكز الإخبار عن الحال الدالة على قوّة المشركين وشوكتهم، وتكامل عدّتهم، وضعف المسلمين، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلّا بأمر إلهي، لم يتيسّر إلّا بحوله وقوّته، وذلك أنّ العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، والعدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلّا بتعب ومشقة، وما كان فيها ماء، وكانت العير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، وفرط حمايتهم وحميتهم، وغاية جهدهم في أن لا يبرحوا بهم إلى مكّة.

وأيضاً لمثل هذه الفائدة قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالهم وحالكم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لشتبكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، هيبة منهم، ويأساً من الظفر عليهم، لتتحققوا أنّ ما اتفق لكم من الفتح ليس إلّا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة، فتزدادوا إيماناً وشكراً.

﴿وَلَكِنْ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد، بل حين وعدكم إحدى

(١) أُغَالَتْ أو أُعْيِلَتْ المرأة ولدها: أرضعته وهي حامل.

الطائفتين مهمة غير مبيّنة، حتّى خرجتم لتأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص^(١) بقریش مخوفين ممّا بلغهم من تعرّض رسول الله ﷺ لأموالهم، حتّى نفروا ليمنعوا غيرهم، وسبّب الأسباب حتّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتّى قامت الحرب على ساق وكان ما كان.

﴿يَقْضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: حقيقة بأن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه، أو متعلّق بقوله: «مفعولاً». والمعنى: ليموت من يموت عن بيّنة عاينها ﴿وَيُخَيِّئَ مَنْ خَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، لئلا يكون له حجة ومعدرة، فإنّ وقعة بدر من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة للنبي ﷺ.

أو المعنى: ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيّنة وقيام حجة عليه، ويصدر إسلام من أسلم عن يقين وعلم بأنّه الدين الحقّ الذي يجب التمسك به. فالهلاك والحياة مستعارتان للكفر والاسلام. والمعنى: «من هلك» و«من حي» المشارف للهلاك الأبدي والحياة السرمدي.

وقرأ ابن كثير برواية البرّي ونافع وأبو بكر ويعقوب: من حيي بفكّ الإدغام، للحمل على المستقبل.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال من كفر وآمن ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه. فالجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدّر بـ«أذكر». أو بدل ثانٍ من «يوم

(١) في هامش النسخة الخطيّة: «شخص به إذا أخرجه منه».

الفرقان». أو متعلق بـ«عليهم»، أي: يعلم المصالح، إذ يقللهم في عينك في رؤياك، وذلك أن الله سبحانه أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان تشبيهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم.

﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا قُفِّلْتُمْ﴾ لجبتهم ﴿وَلَقَنَّا زَعَمًا فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال، وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون وما يغير أحوالها، من الجرأة والجبن والصبر والجزع.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولاً «يري» ﴿إِذِ التَّقَيْنَ فِي أُغْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ حال من المفعول الثاني. وإنما قللهم في أعين المسلمين لا غير، لما روي عن ابن مسعود أنه قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ فقال: أتراهم مائة؟ تصديقاً لرؤيا رسول الله وتشبيهاً لهم.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أُغْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور. وروي أيضاً أنه كان يقول: خذوهم بالأيدي أخذاً، ولا تقاتلوهم.

وإنما قللهم في أعينهم قبل القتال ليجترؤا عليهم، ولا يستعدوا لهم بعد اللقاء، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم، لتفجأهم الكثرة فتبتهتهم، وتكسر قلوبهم، وتفل^(١) شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم. وهذا من عظام آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إحصاء بعض دون بعض، مع التساوي في شروط الرؤية.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كثره لاختلاف المعلل به. أو لأن المراد بالأمر ثم الاكتفاء على الوجه المحكي، وهاهنا إعزاز الاسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه. ﴿وَالِلَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أمور العباد، فيجازيهم على ما يستحقونه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾
وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ
لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِسَانَ نَحْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَنَا مَن
لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَارُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ
يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٥٣﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

ثم أمر سبحانه بالقتال والثبات في الحرب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: إذا حاربتم جماعة كافرة. ولم يصفها، لأن المؤمنين ما كانوا يحاربون إلا الكفار. واللقاء مما غلب استعماله في القتال. ﴿فَأَثْبِتُوا﴾ للقاءهم، ولا تفروا.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن القتال، مستعينين به، مستظهرين بذكره، مترقبين لنصره، داعين له على عدوكم، بأن تقولوا: اللَّهُمَّ اخذلهم، اللَّهُمَّ اقطع دابرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ تظفرون برادكم من النصر والمثوبة.

وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بشرائره^(١) فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه في أيام صفين، وفي مشاهدته مع البغاة والخوارج - من البلاغة والبيان، ولطائف المعاني، وبليغات المواعظ والنصائح - دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ لا تنازعوا فيما بينكم باختلاف الآراء، كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿فَتَقَشَّلُوا﴾ فتجنبوا، وتضعفوا عن قتال عدوكم. هذا جواب النهي منصوب بإضمار «أن». ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والريح مستعارة للدولة، شبهت في تمشي أمرها ونفاذه بهبوب الريح ونفوذها. فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، وركدت ريحه إذا أدبر أمره.

(١) الشرائير: النفس وجميع الجسد.

وقيل: المراد بها الحقيقة، فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

﴿وَأَضْبِرُوا﴾ على قتال الأعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والنصر.
 ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني: أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطْرًا﴾ للبطر والطرب والفخر، أو بطرين طربين متفاخرين ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة. وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت غيركم. فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرًا، ونشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان^(١)، ونطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها فسقوا كأس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان غناء القيان. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويمنعون غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوف على «بطراً» إن جعل مصدرًا في موضع الحال. وكذا إن جعل مفعولاً له، لكن على تأويل المصدر.
 ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم بأعمالكم، فيجازيكم على وفقها.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: اذكر وقت تزوين الشيطان ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في معاداة الرسول وغيرها ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يفلبكم أحد من الناس، لكثرة عددكم وقوتكم. و«لكم» خبر «لا غالب» أو صفته، تقديره: لا غالب كائن لكم. وليس مفعوله، وإلا لا تنصب، فقيل: لا غالباً لكم، بمعنى: لا غالباً إياكم، كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أي: ناصركم ودافع عنكم السوء. وهذه وسوسة نفسانية. والمعنى: أنه ألقى في خاطرهم وخيل إليهم أنهم لا يغلِبون ولا يطاقون، لكثرة

(١) القيان جمع القَيْنة، وهي المغنّية.

عددهم وعددهم، وأوهمهم أَنْ اتَّبَاعَهُمْ إِيَّاهُ فِيمَا يَظُنُّونَ أَنَّهَا قُرْبَاتٌ مُجِيرَاتٌ لَهُمْ، حَتَّى قَالُوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أَهْدَى الْفِتْنَيْنِ، وَأَفْضَلَ الدِّينَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِتْنَتَانِ﴾ أَي: تَلَقَى الْفَرِيقَانِ ﴿نَخَصَ عَلَيَّ عَقِبَيْهِ﴾ رَجَعَ الْقَهْقَرَى، أَي: بَطَلَ كَيْدُهُ، وَعَادَ مَا خِيلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ مُجِيرُهُمْ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَى مَا لَا تَرْوُنَ﴾ مِنْ إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أَخَافَ عَذَابَ اللَّهِ عَلَى أَيْدِي مَنْ أَرَاهُمْ. يَعْنِي: تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَخَافَ عَلَيْهِمْ، وَأَيْسَ مِنْ حَالِهِمْ، لَمَّا رَأَى إِمْدَادَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَلَائِكَةِ.

قِيلَ: لَمَّا اجْتَمَعَتْ قَرِيشٌ عَلَى الْمَسِيرِ ذَكَرُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كِنَانَةَ مِنَ الْحَرْبِ، وَكَادَ ذَلِكَ يَشْتَطُّهُمْ، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إِبْلِيسُ بِصُورَةِ سَرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْشَمِ الشَّاعِرِ الْكِنَانِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ - فِي جَنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَعَهُ رَايَةٌ، وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ، وَإِنِّي مُجِيرُكُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَأَى الْمَلَائِكَةُ نَزَلَ نَكْصَ.

وَرَوَى: كَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَلَمَّا نَكَصَ قَالَ لَهُ الْحَارِثُ: إِلَى أَيْنَ؟ أَتُخَذِلُنَا فِي هَذِهِ الْحَالِ؟ قَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَدَفَعَ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ وَانْطَلَقَ. وَانْهَزَمُوا، فَلَمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ قَالُوا: هَزَمَ النَّاسُ سَرَاقَةَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ سَرَاقَةَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِمُسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتِكُمْ. فَلَمَّا أَسْلَمُوا عَلِمُوا أَنَّهُ الشَّيْطَانُ.

وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام. وَنَقَلَ عَنِ الْكَلْبِيِّ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَعَلَى هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» أَنِّي أَخَافُهُ أَنْ يَصِيبَنِي مَكْرُوهًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ يَهْلِكَنِي. وَيَكُونُ الْوَقْتُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَغْلُومُ﴾ ^(١) هَذَا الْوَقْتُ الْمَوْعُودُ، إِذْ رَأَى فِيهِ مَا لَمْ يَرِ قَبْلَهُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَنْزِلُونَ إِلَّا لِقِيَامِ السَّاعَةِ أَوْ لِلْعَذَابِ. وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَاخْتِيَارُ ابْنِ بَرٍ.

وفي الحديث: «ما رؤي إبليس يوماً أصغر ولا أدهر ولا أغبط من يوم عرفة، لما رأى من نزول الرحمة، إلّا ما رؤي يوم بدر».

﴿وَاللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه، وأن يكون مستأنفاً.
﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شك وشبهة في الاسلام. وقيل: هم المشركون. وقيل: المنافقون. والعطف لتغاير الوصفين.

﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: اغتروا بدينهم، وأنهم ينصرون من أجله، حتّى تعرّضوا لما لا يدي^(١) لهم به. فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف.

ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في أموره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذلّ من استجار به وإن قلّ، فيسلط القليل الضعيف على الكثير القوي. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ ولو رأيت، فإنّ «لو» تجعل المضارع ماضياً عكس «إن» ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ بدر. و«إذ» ظرف «تري» والمفعول محذوف، أي: ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ. و«الملائكة» فاعل «يتوفى». ويدلّ عليه قراءة ابن عامر بالتاء.

وجوز أن يكون الفاعل ضميراً لله. وقوله: «الملائكة» مبتدأ خبره: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ والجملة حال من «الذين كفروا» واستغني فيه بالضمير عن الواو. وهو على الأول حال منهم، أو من الملائكة، أو منهما، لاشتماله على الضميرين.

(١) يُدَيّ وَيُدَيّ جمع اليد، وجمع الجمع الأيدي، يقال: لا بدّين لك بهذا، أي: لا قوّة ولا طاقة لك به.

﴿وَأَذْبَارُهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاذهم. وقيل: المراد تعميم الضرب، أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عطف على «يضربون» بإضمار القول، أي: ويقولون: ذوقوا، بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل: كانت مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار منها في جراحاتهم. وجواب «لو» محذوف، لتفطيع الأمر وتهويله، تقديره: لرأيت أمراً فظيلاً منكراً.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي. وهو خبر «ذلك». ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيَسْـَِٔلُكُمْ بِظُلَامٍ لَّغَبٍ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله يعذب الكفار بالعدل، لأنه لا يظلم عباده في عقوبتهم، وقد بالغ في نفي الظلم عن نفسه بقوله: «ظلام» فإنه صيغة المبالغة. أو تكثير الظلم لأجل كثرة العبيد. أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعدب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه.

وقوله: ﴿كَذَٰبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مرفوع المحل بالخبر، تقديره: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه، أي: داموا عليه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم، أي: ذلك العذاب ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أن الله ﴿لَمْ يَكْ مُغْتِرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: لا يصح ذلك في حكمته حتى يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتحجير قريش حالهم في صلة الرحم والكف عن تعرض الآيات والرسول بمعاداة الرسول ومن تبعه منهم، والسعي في إراقة دمائهم، والتكذيب بالآيات

والاستهزاء بها، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعث.

وعن السدي: النعمة محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش، فكفروا به وكذبوه، فنقله إلى الأنصار.

وهذا من جري عادة الله تعالى، فإن عاداته سبحانه جارية على تغيير نعمته متى غير العبد أعماله بأسوأ منه، فإنه كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها. فكفرة قريش كانوا قبل بعثه الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم النبي بالآيات البينات، فكذبوه وعادوه، وتحزبوا عليه ساعين في اراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من إمهالهم، وعاجلهم بالعذاب.

وأصل «يك» يكون، فحذفت الحركة للجزم، ثم الواو لالتقاء الساكنين، ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً، مع أن كثرة الاستعمال أيضاً مقتضية للتخفيف. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبوا الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

وقوله: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد، ولما نيظ به من الدلالة على كفران النعم بقوله: «بآيات ربهم»، وبيان مأخذ به آل فرعون.

وقيل: الأول لتشبيه الكفر والأخذ به، والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم.

﴿وَكُلُّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، فلم يعاقبوا إلا عن استحقاق.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْكَفَّارَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إِنَّ شَرَّ مَنْ يَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فِي مَعْلُومِ اللَّهِ أَوْ فِي حُكْمِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَصْرُوا عَلَى الْكَفْرِ وَرَسَخُوا فِيهِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكَفْرِ، وَلِجَاهِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِيهِ، فَلَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُمْ إِيمَانًا، وَهُمْ قَوْمٌ مَطْبُوعُونَ عَلَى الْكَفْرِ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَذَكَرَ الْفَاءُ الْعَاطِفَةَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ تَحَقُّقَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ مُسْتَدْرِعٌ لِتَحَقُّقِ الْمَعْطُوفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بَدَلَ مِنْ «الَّذِينَ كَفَرُوا» بَدَلَ الْبَعْضِ، لِلْبَيَانِ وَالتَّخْصِصِ. وَهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، عَاهَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يَمَالُثُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا فَتَكْثُوا، بِأَنْ أَعَانُوا مُشْرِكِي مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ، وَقَالُوا: نَسِينَا وَأَخْطَأْنَا، ثُمَّ عَاهَدَهُمْ فَتَكْثُوا وَمَالُوا عَلَيْهِ الْأَحْزَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَرَكِبَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى مَكَّةَ فَحَالَفَهُمْ.

و«مَنْ» لَتَضْمِينِ الْمَعَاهِدَةِ مَعْنَى الْأَخْذِ. وَالْمَرَادُ بِالْمَرَّةِ مَرَّةَ الْمَعَاهِدَةِ أَوْ مَرَّةَ الْمَحَارَبَةِ، أَيْ: كُلَّمَا عَاهَدْتُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَلَمْ يَفُوا بِهِ. وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ شَرَّ الدَّوَابِّ، لِأَنَّ شَرَّ النَّاسِ الْكَفَّارَ، وَشَرَّ الْكَفَّارِ الْمَصْرُورُونَ مِنْهُمْ، وَشَرَّ الْمَصْرُورِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لَا يَخَافُونَ عَاقِبَةَ الْغَدْرِ وَتَبِعَتِهِ، وَلَا يَبَالُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْعَارِ وَالنَّارِ، أَوْ نَصَرَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَسْلِيطَهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِمْ.

فَإِمَّا تَتَّبِعُهُمْ فِي الْغُرُبِ فَشَدِّ بِهِنَّ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

ثُمَّ حَكَّمَ سَبْحَانَهُ فِي هَؤُلَاءِ النَّاَقِضِينَ لِلْعَهْدِ، فَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَإِمَّا

تَتَقَفَّنَهُمْ ﴿فَإِذَا تَصَادَفْتَهُمْ وَتَظْفَرْنَ بِهِمْ﴾ ﴿فِي الْحَزْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعلّ المشردين يتعظون. فلا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم، وأتاعاً بحالهم.

﴿وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على طريق مقتصد مستوٍ في العداوة، وذلك بأن تخبرهم بنبذ العهد إخباراً ظاهراً مبيتاً لهم أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبدأهم بالقتال وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك. أو على سواء في الخوف، أو العلم بنقض العهد. وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الأول، أي: ثابتاً على طريق سوي، أو من المنبوذ إليهم، أو منهما على غيره. أي: حاصلين على استواء في الخوف أو العلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ، والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال، على طريقة الاستئناف. والمعنى: فلا تخنهم، بأن تناجزهم القتال من غير إعلامهم بالنبذ.

قال الواقدي: هذه الآية نزلت في بني قينقاع، وبهذه الآية سار النبي ﷺ

إليهم.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي
 أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

ولما تقدّم الأمر بقتال الكفار، عقبه سبحانه بوعده النصر والأمر بالإعداد
 لقتالهم، فقال مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ مفعولا
 «يحسبن»، أي: لا تحسبن يا محمد الكافرين قد سبقوا أمر الله وأعجزوه، وأنهم
 فاتوك، فإن الله تعالى يظفرك بهم كما وعدك، ويظهرك عليهم. والسبق والفوت
 بمعنى واحد.

وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص بالياء، على أن الفاعل ضمير أحد، أو «من
 خلفهم»، أو «الذين كفروا» والمفعول الأول أنفسهم، فحذف للتكرار.
 وقيل فيه: أصله أن سبقوا. وهو ضعيف، لأن «أن» المصدرية كالموصول،
 فلا تحذف.

وقيل: وقع الفعل على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر، وأن
 «لا»^(١) صلة، و«سبقوا» حال، بمعنى: سابقين أو مفلتين.

والأظهر أنه تعليل للنهي، أي: لا تحسبهم سبقوا فأفلتوا، لأنهم لا يفوتون
 الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. وكذا إن كسرت «إن» إلا أنه تعليل
 على سبيل الاستئناف. ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو.
 وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من فلّ المشركين.

(١) أي: زائدة، فيكون المعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنهم يعجزون.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد أو الكفَّار ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كلِّ ما يتقوَّى به في الحرب، من العدد وسائر آلات الحرب.
وعن عقبة بن عامر سمعته عليه السلام يقول على المنبر: «ألا إنَّ القوَّةَ الرمي، قالها ثلاثاً». ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله. ولعله عليه السلام خصَّه بالذكر لأنَّه أقواه.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. فعال بمعنى مفعول، أو مصدر سمي به. يقال: ربط ربطاً ورباطاً، وربط مربطة ورباطاً. أو جمع ربيط، كفصيل وفصال. وعطفها على «قوة» إذا فسرت بكلِّ ما يتقوَّى به، كعطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة.

وجاء في الحديث: «أنَّ الشيطان لا يقرب صاحب فرس، ولا داراً فيها فرس عتيق». وروي: «أنَّ سهيل الخيل يرهب الجن».

﴿تُزْهِبُونَ بِهِ﴾ تخوِّفون به. وعن يعقوب: ترهِّبون بالتشديد. والضمير لـ«ما استطعتم» أو للإعداد ﴿عَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ﴾ كفَّار مكَّة ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ وترهبون كفَّاراً آخرين من غيرهم من الكفرة. قيل: هم اليهود. وقيل: المنافقون. وقيل: الفرس. وقيل: كفرة الجن. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم، لأنَّه المطلع على الأسرار.

﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الجهاد ﴿يُؤْتِكُمْ إِنْكُمْ﴾ يوفِّر عليكم ثوابه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ وإن مالوا للصِّلح أو الاستسلام، ومنه الجناح. وقد يعدى باللام وإلى. وقرأ أبو بكر بكسر السين. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وعاهد معهم. وتأنيت الضمير لحمل السلم على تقيضها وهي الحرب، أو لأنَّه بمعنى المسالمة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإنَّ الله يعصمك من مكرهم، ويحقِّقه بهم. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِنيتهم.

والآية مخصوصة بأهل الكتاب، لاتصالها بقصتهم. وقيل: عامّة نسختها آية السيف^(١). والأصحَّ أنَّها ليست بمنسوخة، لأنَّها في المواعدة لأهل الكتاب، وآية السيف لعباد الأوثان.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ في الصلح، بأنَّ يقصدوا به دفع أصحابك عن القتال، حتَّى يقوى أمرهم فيبدؤوكم بالقتال بالاستعداد التامَّ ﴿فَبِإِنْ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإنَّ محسبك الله تعالى وكافيك من مكرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِمَنْضَرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً، ينصرونك على أعدائك، يريد الأنصار، وهم الأوس والخزرج.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما فيهم من العصبية والضعيفة في أدنى شيء، والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، فإنَّه لم يكن حيّان من العرب بينهما من العداوة مثل ما كان بين هذين الحيين، فألف الله بين قلوبهم حتَّى صاروا كنفس واحدة في التحابِّ والتواذِّ، وهذا من معجزاته ﷺ.

وبيانه قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كان تناهي عداوتهم بحيث لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح، وإزالة ضغائن الجاهلية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة، فإنَّه المالك للقلوب، يقلبها كيف يشاء. فصافوا، وصاروا أنصاراً بميامن الاسلام، وبركة سيّد الأنام عليه وآله أفضل الصلاة والسلام.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تامَّ القدرة والغلبة، لا يعصي عليه ما يريد ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنَّه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِثْلِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثْلِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ
مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار، وحث عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾
كافيك. وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إما في محل نصب على المفعول معه.
والمعنى: كفاك الله مع متبعيك من المؤمنين ناصراً. أو في محل الجرّ عطفاً على
المكني عند الكوفيين. أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى، أي: كفاك الله عز وجل
والمؤمنون. وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ بالغ في حثهم عليه. وأصله
الحرص، وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى - أي: يشرف - على الموت ﴿إِنْ يَكُنْ

مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ﴿٦٤﴾ عَلَى الْقِتَالِ ﴿٦٥﴾ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴿٦٦﴾ مِنَ الْعَدُوِّ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦٨﴾ اللَّفْظُ لَفْظُ الْخَبَرِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْأَمْرُ. وَهَذِهِ عِدَّةٌ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّ الْجَمَاعَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ صَبَرُوا غَلَبُوا عَشْرَةَ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَعُونِهِ.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: تكن بالناء في الآيتين. ووافقه البصريان في «وإن تكن منكم مائة».

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أَنَّ الْكُفَّارَ جَهْلَةٌ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، لَا يَشْتَوْنُ ثَبَاتَ الْمُؤْمِنِينَ، رَجَاءَ الثَّوَابِ وَعَوَالِي الدَّرَجَاتِ قَتَلُوا أَوْ قَتَلُوا، وَلَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا الْهَوَانَ وَالْخِذْلَانَ، فَيَقَاتِلُونَ عَلَى غَيْرِ احْتِسَابِ ثَوَابٍ كَالْبَهَائِمِ.

عن ابن جريج: كان عليهم أن لا يفرّوا، وشيت الواحد منهم للعشرة. وكان رسول الله ﷺ بعث حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب، فنقل ذلك عليهم وضجّوا منه. وكان ذلك الحكم مدّة طويلة، ثمّ نسخ وخفّف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، بقوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فيه (١) لفتان: الفتح، وهو قراءة عاصم وحمزة. والضّمّ، وهو قراءة الباقيين. والضعف ضعف البدن. وقيل: ضعف البصيرة والاستقامة في الدين، وكانوا متفاوتين فيها.

وقال في المجمع: «أراد به ضعف البصيرة والعزيمة، ولم يرد ضعف البدن، فَإِنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي الْإِبْتِدَاءِ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ أَقْوِيَاءَ الْبَدَنِ، بَلْ كَانَ فِيهِمْ الْقَسْوِيُّ وَالضَّعِيفُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَقْوِيَاءَ الْبَصِيرَةِ وَالْيَقِينِ، وَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاخْتَلَطَ بِهِمْ مَنْ كَانَ أَوْعَفَ يَقِينًا وَبَصِيرَةً نَزَلَ: «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» (٢).

(١) أي: في «ضعفاً».

(٢) مجمع البيان ٤: ٥٥٧.

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ على القتال ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من العدو ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ منهم ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ بعلم الله أو بأمر الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلبون؟ قيل: كان فيهم قلة فأمروا بذلك، ثم لما كثروا خفف عنهم. وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة قبل التخفيف وبعده، للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد لا يتفاوت، لأن الحال قد يتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

واعلم أن هذه الآية ناسخة للأولى كما مر، والمعتبر في الناسخ والمنسوخ بالنزول دون التلاوة. وعن الحسن: أن التغليظ كان على أهل بدر، ثم جاءت الرخصة.

روي أنه كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه سبعة وعشرين. وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب رسول الله، فجمعوا الأسارى وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم. وقتل من أصحاب رسول الله ﷺ تسعة رجال، منهم سعد بن خيشمة، وكان من النقباء من الأوس.

وعن محمد بن إسحاق: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار، وقيل: ثمانية. وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً.

وعن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: سمعت أنين عمي العباس في وثاقه. فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله ﷺ.

وفي كتاب علي بن إبراهيم^(١): لَمَّا قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين منهم وهم قومك وأسرتك، فخذ من هؤلاء الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش.

وروي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يوم بدر كره أخذ الفداء، حَتَّى رَأَى سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا أَوَّلُ حَرْبٍ لَقِينَا فِيهِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْإِثْخَانَ فِي الْقَتْلِ أَحَبُّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ. وكذا قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله كَذَّبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ، فَقَدَّمَهُمْ وَأَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَمَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَمَكَّنِّي مِنْ فُلَانٍ أَضْرَبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ. وقال أبو بكر: أَهْلَكَ وَقَوْمَكَ؛ اسْتَبَقَهُمْ وَخَذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ.

وأيضاً في كتاب علي بن إبراهيم^(٢): كَانَ أَكْثَرُ الْفِدَاءِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَأَقْلَهُ أَلْفٌ دِرْهَمٍ. فَبِعِثْتُ قَرِيشَ بِالْفِدَاءِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا، فَبِعِثْتُ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ فِدَاءِ زَوْجِهَا أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّيْعِ، وَبِعِثْتُ قَلَانِدَ لَهَا كَانَتْ خَدِيجَةَ جَهَّزَهَا بِهَا، وَكَانَ أَبُو الْعَاصِ ابْنَ أُخْتِ خَدِيجَةَ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْقَلَانِدَ قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ خَدِيجَةَ هَذِهِ قَلَانِدُ هِيَ جَهَّزَهَا بِهَا، فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَرْطٍ أَنْ يَبِيعَ إِلَيْهِ زَيْنَبُ، وَلَا يَمْنَعَهَا مِنَ اللَّحُوقِ بِهِ، فَعَاهَدَهُ عَلَى ذَلِكَ وَوَفَّى لَهُ. وَكَانَ أَكْثَرُ الْفِدَاءِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَأَقْلَهُ أَلْفٌ دِرْهَمٍ.

ثم نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍِّّ﴾ ما استقام لنبيٍّ وما صحَّ له ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾

(١) تفسير القمّي ١: ٢٧٠.

(٢) لم نجده في تفسير علي بن إبراهيم، والظاهر أنه من كلام الطبري رحمه الله، إذ نقل أولاً عن كتاب علي بن إبراهيم ثم عقبه بما في المتن هنا، وحسبه المؤلف رحمه الله أنه من تنمّة المنقول عن تفسير القمّي. راجع مجمع البيان ٤: ٥٥٩.

من المشركين ليفديهم أو يمنّ عليهم. وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. يكثر القتل ويبلغ فيه بإشاعته. حتى يذلّ الكفر ويقلّ حزبه. ويعزّز الاسلام ويستولي أهله. من: أمّخنه المرض إذا أنقله. وأصله الثخانة.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. سمي عرضاً لأنه حدث قليل اللبث. والخطاب للمؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة، من إعزاز دينه وقمع أعدائه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكلّ حال ويخصّه بها، ولهذا أمر بالإيخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين. وخير بينه وبين المنّ لما تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: حكم فيه ﴿سَبَقَ﴾ في اللوح بإباحة الغنائم لكم، ومن ذلك الفداء، ورفع التعذيب عن أهل بدر، أو عن قوم لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو عن الخطأ في اجتهادهم لأنهم نظروا في أنّ استبقاءهم ربّما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأنّ فداءهم يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أنّ قتلهم أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأفلّ لشوكتهم. ﴿لَمَسْكُكُمْ﴾ لنالكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن زيد: قال رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منكم غير عمر وسعد بن معاذ».

وقيل: معناه: لولا كتاب من الله في القرآن أنّه لا يعذبكم والنبيّ بين أظهركم. حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(١).

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية، فإنّها من جملة الغنائم. وقيل: أمسكوا عن

الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها بعد العتاب على الفداء، فنزلت. والفاء للتسبيب، والسبب محذوف، تقديره: أبحث لكم الغنائم فكلوا. وبنحوه تشبّث من زعم أنّ الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة.

﴿حَلَالًا﴾ حال من المغموم أو صفة للمصدر، أي: أكلًا حلالًا. وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنوبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾
وَلِإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

روي أنّ رسول الله ﷺ كلف العباس أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيّل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث.

فقال: يا محمد تركتني أتكفّف^(١) قريشاً ما بقيت.

فقال: فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقت خروجك، وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم.

فقال: وما يدريك؟

(١) تكفّف الناس: مدّ كفّه إليهم يستعطي.

قال: أخبرني به ربي.

قال: فأشهد أنك صادق، لا إله إلا الله وأنت رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، وإذا أخبرتني بذلك فزال ربي وشكّي في نبوتك.

فزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ أي: أيديكم قابضة عليهم، وقرأ أبو عمرو: من الأسارى. والقراءة الأولى أولى، لأن الأسير فعيل بمعنى المفعول، وذلك يجمع على فعلى، نحو جريح وجرحى. وقيل: وجه القراءة الثانية تشبيهه بكسالى، كما شبهوا كسلى بأسرى.

﴿إِنْ يَغْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص عقيدة وصحة نية في الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء إما بأن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يشيكم في الآخرة. قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم ليضرب - أي: ليسافر - في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني: الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وروي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضاً لصلاة الظهر، وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، وأرجو المغفرة.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك من الاسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بأن خرجوا إلى بدر وقاتلوا مع المشركين، أو بأن نقضوا الميثاق المأخوذ بالعقل ﴿فَأَمْتَحَنُ مِنْهُمْ﴾ أي: فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر، وسيمكنك منهم ثانياً إن خانوك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يقولونه، وبما في نفوسكم، وبجميع الأشياء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا
لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ
النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ
كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

ثم ختم الله سبحانه السورة بإيجاب موالة المؤمنين وقطع موالة الكافرين،
فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي: فارقوا أوطانهم حباً لله تعالى ولرسوله. وهم
المهاجرون من مكة إلى المدينة. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكراع^(١)
والسلاح، وأنفقوها على المحاريج ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم، ونصروهم على
أعدائهم ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان
المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب، أو بالمؤاخاة، وهذا
مروي عن أبي جعفر عليه السلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾^(٢)
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي: من

(١) الكراع: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير، أو اسم لجماعة الخيل خاصة.

(٢) الأنفال: ٧٥.

توليهم في الميراث. وقرأ حمزة: **وَلَا يَتِيهِمُ بِالْكَسْرِ**. قال الزجاج: هي بفتح الواو من النصرة والنسب، وبالكسر هي بمنزلة الإمارة. ووجه الكسر أنه شبه تولي بعضهم بعضاً بالصناعة والعمل، لأن كل ما كان من هذا الجنس مكسور، كالصياغة والكتابة، فكان الرجل بتوليّه صاحبه يباشر أمراً ويزاول عملاً.

﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ﴾ أي: وإن طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا منكم النصرة لهم على الكفار ﴿فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ﴾ من المشركين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد، فلا يجوز لكم نصرهم عليهم، لأنهم لا يبتدون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُصِيبُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة. وهو بمفهومه يدل على نهى المسلمين عن موالاة الكفار ومعاونتهم، وإن كانوا أقارب ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار، وجعل قرابتهم كلا قرابة في التوارث ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة عظيمة فيها، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

ولَمَّا قَسَمَ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، بَيَّنَّ أَنَّ الْكَامِلِينَ فِي الْإِيمَانِ مِنْهُمْ هُمُ الَّذِينَ حَقَّقُوا إِيمَانَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. ثُمَّ وَعَدَهُمُ الْمَوْعِدَ الْكَرِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لَا تَبْعَةَ وَلَا مَنَّةَ فِيهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِالْهَجْرَةِ وَالنَّصْرَةِ، وَالْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ لِأَجْلِ الدِّينِ. وَلَيْسَ بِتَكَرُّارٍ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَارِدَةٌ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالشَّهَادَةِ لَهُمْ مَعَ الْمَوْعِدِ الْكَرِيمِ، وَالْآيَةُ الْأُولَى لِلأَمْرِ بِالتَّوَاصُلِ.

ثُمَّ أَلْحَقَ بِهِمْ فِي الْأَمْرِ مِنْ سَيِلْحَى بِهِمْ وَيَتَّسَمَ بِسَمْتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ مِنْ بَعْدِ فَتْحِ مَكَّةَ. وَقِيلَ: مَنْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ. ﴿وَهَاجَرُوا﴾ بَعْدَ هَجْرَتِكُمْ ﴿وَجَاهَدُوا﴾ فِي الْجِهَادِ وَبِذْلِ الْأَمْوَالِ فِيهِ ﴿مَعَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. يَرِيدُ اللَّاحِقِينَ بَعْدَ السَّابِقِينَ إِلَى الْهَجْرَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(١) فَأَلْحَقَهُمُ اللَّهُ بِهِمْ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَرْغِيباً، فَقَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: مَنْ جَمَلْتَكُمْ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَحَكَمَهُمْ كَحَكْمِكُمْ فِي وَجُوبِ مَوَالِيهِمْ وَنَصْرَتِهِمْ وَإِنْ تَأَخَّرَ إِيمَانُهُمْ وَهَجَرَتِهِمْ.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وَأُولُوا الْقَرَابَاتِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فِي حَكْمِهِ، أَوْ فِي اللَّوْحِ، أَوْ فِي الْقُرْآنِ. وَهَذَا نَسْخٌ لِلتَّوَارِثِ بِالْهَجْرَةِ وَالنَّصْرَةِ كَمَا مَرَّ آنَفًا. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْمَيِّتِ فِي النَّسَبِ كَانَ أَوْلَىٰ بِالْمِيرَاثِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مِنَ الْمَوَارِيثِ وَالْحِكْمَةِ، فِي إِسْنَادِهَا بِنَسْبَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُظَاهَرَةِ أَوَّلًا، وَاعْتِبَارِ الْقُرْبَةِ ثَانِيًا.



سورة التوبة

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا
فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي
الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

مدنيّة، وآياتها مائة وتسع وعشرون.

ولها أربعة^(١) عشر اسماً:

البراءة، لأنّها مفتّحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفّار.

والتوبة، لكثرة ما فيها من ذكر التوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ﴾^(٢) ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾^(٣).

والفاضحة، لأنّها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

(١) ذكر الشارح رحمه الله ثلاثة عشر اسماً فقط، وسقط الرابع عشر من قلمه، وهو - كما في تفسير

البيضاوي ٣: ٥٨ - المخزية، لما فيها مما يخزي المنافقين.

(٢ - ٤) التوبة: ١٥ و ٧٤ و ١١٨.

والمبصرة، لأنّها تبصر عن أسرار المنافقين، أي: تبحث عنها.
والمنفرة لذلك، لأنّ التنقير بمعنى البحث والتفتيش.
والمقشقة، لأنّها تبرئ من آمن بها من النفاق والشرك، لما فيها من الدعاء
إلى الإخلاص. يقال: قشقه إذا برّاه، وتقشش المريض من علته إذا برىء منها
وأفاق.

والبحوث، لأنّها تتضمّن ذكر المنافقين والبحث عن سرائرهم.
والمدممة، أي: المهلكة، ومنه قوله: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾^(١).
والحافرة، لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسيرونه.
والمثيرة، لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم.
والمنكّلة، لأنّها تنكّلهم.
والمشرّدة، إذ تشرّدهم.
وسورة العذاب، لأنّها نزلت بعذابهم.
وإنّما تركت التسمية فيها، لأنّها نزلت لرفع الأمان، وبسم الله أمان، كما ورد
عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم راس سورة براءة،
لرفع الأمان ولل سيف». وهذا منقول عن سفيان بن عيينة. واختاره أبو العباس
المبرّد.

وقيل: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا نزلت عليه سورة أو آية بين موضعهما، وتوفّي ولم
يبين موضعها. وكانت قصّتها تشابه قصّة الأنفال وتناسبها، لأنّ في الأنفال ذكر
العهود، وفي براءة نبذها، فضمّت إليها، ولهذا سمّيتا قرينتين، وتعّدان السابعة من
السبع الطوال.

وقيل: لما اختلفت الصحابة في أنّهما سورة واحدة - وهي سابعة السبع

الطوال - أو سورتان تركت بينهما فرجة، ولم يكتب «بسم الله» لقول من قال: هما سورة واحدة.

ويؤيد الأول ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «الأنفال وبراءة واحدة». وروي ذلك عن سعيد بن المسيّب، عن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له». الخبر بتمامه مضى ذكره في صدر سورة الأنفال^(١).

وروى الثعلبي بإسناده عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما نزل عليّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو الله أحد، فإنهما نزلتا ومعهما سبعون ألف صفّ من الملائكة».

وعلى قول من قال إنهما سورتان قيل: ولما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة من الكفار، افتتح هذه السورة بأنه تعالى ورسوله بريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم في سورة الأنفال، فقال: ﴿بِرَّاءَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه براءة. و«من» ابتدائية متعلّقة بمحذوف تقديره: واصلة من الله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: انقطاع منهما للعصمة، ورفع الأمان، وخروج من العهود. ويجوز أن تكون براءة مبتدأ، لتخصّصها بصفتها، والخبر قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما تقول: رجل من قريش في الدار. والمعنى: أن الله ورسوله برئان من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

وإنما علّقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين، للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول. فإنهما برئان الآن منها. وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً، منهم بنو ضمرة وبنو كنانة، فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين، وأمهل المشركين أربعة أشهر

ليسيروا أين شأوا، فقال خطاباً للمشركون: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾
شَوَّال وذِي الْقَعْدَةِ وذِي الْحِجَّةِ والمحَرَّمِ، آمَنِينَ أين شئتم، وذلك لصيانة الأشهر
الحرم من القتل والقتال فيها.

وقيل: إِنَّ بَرَاءَةَ نَزَلَتْ فِي شَوَّالِ سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَفَتَحَ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانَ.
وقيل: كَانَ ابْتِدَآؤُهَا مِنَ النَّحْرِ إِلَى الْعَاشِرِ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ، لِأَنَّ التَّبْلِيغَ كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ.
وهو الْأَصَحُّ، لِأَنَّهُ مَرْوِيٌّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام.

وقال ابن عباس: إِنَّمَا أَجْلَهُمُ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةَ مِنْ شَوَّالٍ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ، لِأَنَّ
هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَوَّالٍ.

قال في الكشاف: «كَانَ نَزُولُ بَرَاءَةِ سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَفَتَحَ مَكَّةَ سَنَةَ
ثَمَانَ، وَكَانَ الْأَمِيرُ عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ عَلَى مَوْسَمِ الْحَجِّ
سَنَةِ تِسْعٍ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ عَلِيًّا عليه السلام رَاكِبًا الْعُضْبَاءَ - وَهِيَ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - لِيَقْرَأَهَا
عَلَى أَهْلِ الْمَوْسَمِ. فَقِيلَ لَهُ: لَوْ بَعَثْتَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ: لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ
مَنِّي. فَلَمَّا دَنَا عَلِيٌّ عليه السلام سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ الرِّغَاءَ فَوَقَفَ، فَقَالَ: هَذَا رِغَاءُ نَاقَةِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا لَحِقَهُ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ قَالَ: مَأْمُورٌ.

وروي: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ هَبَطَ جَبْرِثِيلٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لَا
يَبْلُغُ رِسَالَتَكَ إِلَّا رَجُلٌ مِنْكَ، فَأَرْسَلَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَيْءٌ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَسَرَّ وَأَنْتَ عَلَى
الْمَوْسَمِ، وَعَلَيَّ يَنَادِي بِالْآيِ. فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ خُطِبَ أَبُو بَكْرٍ وَحَدَّثَهُمْ عَنْ
مَنَاسِكِهِمْ. وَقَامَ عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ. فَقَالُوا: بِمَاذَا؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً. وَعَنْ
مُجَاهِدٍ ثَلَاثَ عَشْرَةِ آيَةٍ. ثُمَّ قَالَ: أَمَرْتُ بِأَرْبَعٍ: أَنْ لَا يَقْرُبَ الْبَيْتَ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ
مَشْرُكٌ. وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرِيَانٌ. وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا كُلُّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٌ. وَأَنْ يَتِمَّ كُلُّ

ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ أبلغ ابن عمّك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنّه ليس بيننا وبينه عهد إلّا طعن بالرماح وضرب بالسيوف»^(١) انتهى كلامه.

وقال في المجمع: «روى عاصم بن حميد، عن أبي بصير، عن الباقر عليه السلام قال: خطب عليّ عليه السلام الناس يوم النحر، واختلط سيفه فقال: لا يطوفنّ بالبيت عريان، ولا يحجّجنّ بالبيت مشرك، ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر، وقرأ عليهم سورة براءة»^(٢).

وقيل: إنّهُ أخذها من أبي بكر قبل الخروج ودفعها إلى عليّ عليه السلام، وقال: لا يبلغ عني إلّا أنا أو رجل مني.

وروى أصحابنا: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أيضاً الموسم، وأنّه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن سماك بن حرب، عن أنس بن مالك: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث ببراءة مع أبي بكر إلى أهل مكّة، فلمّا بلغ ذا الحليفة بعث إليه فردّه، وقال: لا يذهب بهذا إلّا رجل من أهل بيتي، فبعث عليّاً عليه السلام»^(٣). وتحريم القتال في الأشهر الحرم قد نسخ، وأبيح قتال المشركين فيها بعد ذلك.

﴿وَاَعْلَمُوا أَنكُمُ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي: مذلّهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

(١) الكشاف ٢: ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) مجمع البيان ٥: ٣ - ٤.

(٣) شواهد التنزيل ١: ٣٠٥ ح ٣٠٩.

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
 مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْتَقِصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوَّلًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ
 عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

ولما أخبر بثبوت البراءة أخبر بعد ذلك بوجوب الإعلام بما ثبت، فقال:
 ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إعلام منهما إليهم. فعال بمعنى الإفعال،
 أي: الإيدان، كالأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والمراد من الناس الناكثون،
 أو جميع الناس من عاهد منهم ومن لم يعاهد. ورفع كرفع براءة بعينه على
 الوجهين، فالجمله معطوفة على مثلها.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قيل: يوم النحر، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن
 الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع،
 فقال: هذا يوم الحج الأكبر. وروي أن علياً عليه السلام أخذ رجل بلجام دابته فقال: ما
 الحج الأكبر؟ فقال: يومك هذا، خلّ عن دابتي. وقيل: يوم عرفة، لقوله ﷺ:
 «الحج عرفة».

ووصف بالحج الأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر. أو لأن المراد بالحج
 ما يقع في ذلك اليوم من أعماله، فإنه أكبر من باقي الأعمال. أو لأن ذلك الحج
 اجتمع فيه المسلمون والمشركون، ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك

قبله ولا بعده، فعظم في قلب كل مؤمن وكافر، وظهر فيه عزّ المسلمين وذلّ المشركين.

﴿أَنْ اللَّهَ﴾ أي: بأن الله، حذف الباء تخفيفاً. ﴿بَرِيءٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهودهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على الضمير المستكن في «بري» ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة عليهما، لأنكم تنجون به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو تبتم على التولي والإعراض عن الاسلام والوفاء ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ غير سابقين الله هرباً، ولا فائتين أخذه وعقابه. وفي هذا إعلام بأن الإمهال ليس بعجز، بل إنما هو لإظهار الحجة والمصلحة.

ثم أوعدهم بعذاب الآخرة فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة. وذكر البشارة مكان النذارة للتهكم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين أو استدراك، فكأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد إلى الناكثين: ولكن الذين عاهدوا منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ﴾ من شروط العهد أصلاً ولم ينكثوه، أو لم يقتلوا منكم ولم يضرّوكم قطّ ﴿وَلَمْ يَظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَيْمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَيْنَا مَدَّيْهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم التي وقع العهد إليها، ولا تجروهم مجرى الناكثين، ولا تجعلوا الوفي كالغادر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتبنيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

والمراد بهم بنو كنانة وبنو ضمرة وأشباههم، فإنهم قد بقي من أجلهم تسعة أشهر، فأمر النبي ﷺ بإتمامها لهم، لأنهم لم يظاهروا على المؤمنين، ولم ينقضوا عهد رسول الله ﷺ. أو المراد أهل هجر وأهل البحرين وأيلة ودومة الجندل، فإن له ﷺ عليهم عهوداً بالصلح والجزية، ولم ينبذ إليهم بنقض عهد ولا حاربهم بعد، لأنهم لم ينقضوا العهود، وكانوا أهل ذمة إلى أن مضى لسبيله ﷺ.

فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَاخْذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
اسْتَجَارَكَ فَاجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

ثم بين سبحانه الحكم في المشركين بعد انقضاء المدة. فقال: ﴿فَإِذَا
اسْتَلَخَ﴾ انقضى. وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لا يلبسه. من سلخ الشاة
﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها. وقيل: هي رجب
وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ثلاثة سرد، وواحد فرد. وهذا مخلّ بالنظم،
لأنّ اللام في الأشهر الحرم إشارة إلى أربعة أشهر في قوله: «فسيحوا في
الأرض أربعة أشهر» فصرفه إلى غيرها مخلّ بالنظم، وأيضاً مخالف
للاجماع.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين، وضعوا السيف فيهم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من
حلّ أو حرم ﴿وَاخْذُوهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ الأسير. ﴿وَأَخْصِرُوهُمْ﴾
واحبسوهم. أو حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. أو امنعوا من التصرف في
البلاد. ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كلّ ممزّ وطريق ترصدونهم، أي: ضيقوا المسالك
عليهم لئلا يتبسطوا في البلاد، فتمكنوا من أخذهم. والأمر للتخيير. وانتصابه على

الظرف، كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١). وهذا ناسخ لكل آية وردت في الصلح والإعراض عنهم.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك بالإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. والمعنى: قبلوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنَّ عصمة الدم لا تقف على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فثبت أنَّ المراد به القبول. ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوههم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، أو دعوههم يحجَّوا ويدخلوا المسجد الحرام. وفيه دليل على أنَّ تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلَّى سبيله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر، أي: فخلَّوهم، لأنَّ الله غفور رحيم، غفر لهم ما قد سلف من كفرهم وغدرهم، ووعد لهم الثواب بالتوبة.

﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. و«أخذ» رفع بفعل يفسره ما بعده، لا بالابتداء، لأنَّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. فتقدير الكلام: وإن استجاركَ أحد ﴿فَاجْزِهِ﴾ فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أبلغه مَآمَنَهُ﴾ موضع أمنه بعد ذلك - يعني: داره التي يأمن فيها - إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة. وهذا الحكم ثابت في كلِّ وقت. وعن الحسن: هي محكمة إلى يوم القيامة. وإنما خصَّ كلام الله لأنَّ معظم الأدلَّة فيه.

﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر بالاجارة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنَّهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإيمان، وما حقيقة ما تدعوههم إليه؟ فلا بدَّ من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

وعن سعيد بن جبیر: «جاء رجل من المشركين إلى عليٍّ عليه السلام فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه حاجة

قتل؟ قال: لا، لأنَّ الله يقول: «وإنَّ أحدَ منَ المشركين استجاركَ» الآية. وعن السَّدي والضَّحَّاك: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعَذَّبُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ
بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّتُمُ الْكَافِرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنْهَوْنَ ﴿١٢﴾

ولمَّا أمر سبحانه بنبذ العهود إلى المشركين، بيَّن أنَّ العلة في ذلك ما ظهر
منهم من الغدر، وأمر بإتمام العهد لمن استقام على الأمر، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴿ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة^(١) صدورهم وغدرهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبر «يكون»: «كيف»، وقدم للاستفهام، أو «للمشركين» أو «عند الله». وهو على الأولين صفة للعهد، أو ظرف له، أو لقوله: «يكون». و«كيف» على الأخيرين حال من العهد. وقوله: «للمشركين» إن لم يكن خبراً فتبيين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل من بني كنانة وبني ضمرة ونظرائهم. ومحلّه النصب على الاستثناء، أو الجرّ على البدل، أو الرفع على أنّ الاستثناء منقطع، أي: ولكنّ الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ ما تحتل الشرطيّة والمصدريّة، أي: فتربصوا أمرهم فلا تقاتلوهم، فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء، أو ما داموا باقين معكم على الطريقة المستقيمة فكونوا معهم كذلك. وهذا كقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا إِلَهُهُمْ عَهْدَهُمْ﴾^(٢) غير أنّه مطلق وهذا مقيد. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ للنكت والغدر، فإنّ التربص بهم من أعمال المتقين.

﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد، أو بقاء حكمه، مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به، أي: كيف يكون لهم عهد؟ ﴿وَأِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: وحالهم أنّهم إن يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَزِفُّوْا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا ولا يحفظوا ﴿إِلَّا﴾ حلفاً، وقيل: قرابة. وقيل: ربوبيّة. ولعلّه اشتقّ للحلف من الألّ، وهو الجوّار^(٣). يقال: له أليل، أي: أنين يرفع به صوته، لأنّهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم، ثم استعير للقرابة، لأنّها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثمّ للربوبيّة والتربية. وقيل: اشتقاقه من: آلّ الشيء إذا حدّده، أو من: آلّ

(١) الوَغْرُ: الحقد والعداوة والظن، ووَغْرَةُ الصدر: شدّة غيظه.

(٢) التوبة: ٤.

(٣) جَارٌ يجارُ جُوراً إلى الله: رفع صوته بالدعاء.

البرق إذا لمع. ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله وإهماله.
وقوله: ﴿يُزْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ كلام مستأنف في وصف حالهم من مخالفة
الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد، وإباء القلوب مخالفة ما فيها
من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل، وهذه المخالفة موجبة
لعدم مراقبتهم عند الظفر. والمعنى: يتكلمون بكلام الموالين لترضوا عنهم ﴿وَتَأْتِي
قُلُوبُهُمْ﴾ ما تنفوه به أفواههم، للعداوة والغدر ونقض العهد.

﴿وَأَخْذَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون في الكفر والشرك، لأنّه لا عقيدة لهم
تمنعهم، ولا مروءة تردعهم، وهم رؤساء الكفرة. أو خارجون عن طريق الوفاء
بالعهد. وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التباعد عن الغدر، والتعفف عما
يجزّ إلى أحدوة السوء. ولا يجوز جعل هذه الجملة الفعلية حالاً من فاعل «لا
يرقبوا»، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن والاسلام ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً،
وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عن دينه الموصل إلى
رحمته، وصرفوا غيرهم عنه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار. والفاء للدلالة
على أن اشتراءهم أذاهم إلى الصّد.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بشس العمل عملهم هذا، أو ما دلّ عليه قوله:
﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل: الأوّل عامّ في
الناقضين، وهذا خاصّ بالذين اشتروا، وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو
سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْعَتُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.
﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والصّد ونقض العهد ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَاِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفُصِّلُ
الْآيَاتِ﴾ ونبيّتها ﴿يَقُومُ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحثّ على تأمل ما فصل من أحكام
المعاهدين أو خصال التائبين، فكأنه قيل: ومن تأمل تفصيلها فهو العالم.

﴿وَأَن نَّكُونُوا آمِنًا بِهِمْ﴾ وإن نقضوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود
 ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ من بعد أن عقدوها ﴿وَوَطَّعُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب
 وتقييح الأحكام ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي: فقاتلوهم. فوضع أئمة الكفر موضع
 الضمير، للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر والضلالة،
 أحقاء بالقتل. وقيل: المراد بالأئمة رؤساء المشركين. فالتخصيص إما لأن قتلهم
 أهم، وهم أحق به، أو لل منع من مراقبتهم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: أئمة، بتسهيل^(١) الثانية بلا فصل بينهما.
 وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي وروح عن يعقوب: أئمة، بتحقيق الهمزتين
 على الأصل. والتصريح بالياء لحن.

وعن حذيفة: لم يأت أهل هذه الآية بعد. وقرأ علي عليه السلام الآية يوم الجمل، ثم
 قال: «والله لقد عهد إلي رسول الله ﷺ وقال لي: يا علي لتقاتلن الفئة الناكثة،
 والفئة الباغية، والفئة المارقة».

﴿إِنَّهُمْ لَا آمِنَانِ لَهُمْ﴾، أي: لا عهود لهم على الحقيقة - يعني: لا يحفظونها -
 وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، فلا تعطوهم الأمان بعد النكث والردة. وفيه دليل على أن
 الذمي إذا طعن في الاسلام فقد نكث عهده. وقرأ ابن عامر: لا إيمان، بمعنى: لا
 أمان أو لا إسلام.

وعلى القراءة الأولى استشهد الحنفي على أن يمين الكافر ليس يميناً. وهو
 ضعيف، لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بإيمان.

وعلى الثانية تشبث بها من لم يقبل توبة المرتد. وهو أيضاً ضعيف، لجواز أن
 يكون بمعنى: لا يؤمنون، على أن الإخبار عن قوم معينين، إذ ليس لهم إيمان
 فيراقبوا لأجله.

(١) أي: تلفظ الهمزة الثانية بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ متعلق بـ«قاتلوا» أي: ليكون غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين. وهذا من غاية كرمه العميم وفضله الجسيم، جلّ كرمه وعظم فضله.

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

ثم حَرَّضَ المؤمنين على القتال، فقال: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ دخول الهمزة على «لا» للإنكار، فأفادت المبالغة في الفعل والتحريض فيه، أي: هَلَا تقاتلون ﴿قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا بني بكر على خزاعة ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، فأذن الله له في الهجرة، فخرج بنفسه، على ما مرّ ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١). وقيل: هم اليهود نكثوا عهد رسول الله، وهموا بإخراجه من المدينة.

﴿وَهُمْ بَدَأُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة، لأنّه ﷺ بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، والبادي أظلم، فما يمنعكم أن تقابلوهم وتقاتلوهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ الهمزة للتوبيخ الذي يتضمن التشجيع، أي: أتركون قتالهم خشية أن ينالكهم مكروه منهم؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تركوا أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ قِضَةَ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يَخْشَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَبَالِي بِمَنْ سِوَاهُ، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾^(٢).

(١) راجع ص: ٣٣ ذيل الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
 قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم أمرهم بالقتال بعد بيان موجهه، والتوبيخ على تركه، والتوعيد عليه،
 فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ أسراً ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾
 غلبة. هذا وعد للمؤمنين إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكّن من قتلهم وإذلالهم،
 ليثبت قلوبهم ويصحّ نيّاتهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم،
 يعني: بني خزاعة. وعن ابن عباس: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة وأسلموا،
 فلقوا من أهلها أذىً شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا فإنّ الفرج
 قريب.

﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه، وقد أوفى الله تعالى بما
 وعدهم به. والآية من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ استئناف كلام. وفيه
 إخبار بأنّ بعضهم سيتوب عن كفره. وقد كان ذلك أيضاً، فإنّ كثيراً منهم قد أسلموا
 وحسن إسلامهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما كان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل
 ولا يحكم إلّا على وفق الحكمة والمصلحة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ثم تبيّه سبحانه على جلالة موقع الجهاد، فقال خطاباً للمؤمنين حين كره

بعضهم القتال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أم منقطعة. ومعنى الهمة فيها التوييح على الحساب. والمعنى: لا تظنوا أنكم تتركون على ما أتم عليه ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ والحال أنه لم يبين الله ولم يميز الخلف منكم، وهم المجاهدون في سبيل الله لوجه الله. نفى العلم وأراد نفى المعلوم للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه، من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه، كما يقال: ما علم الله ما قيل في فلان، أي: ما وجد ذلك. و«لما» معناها التوقع، فدلّت على أن تميز ذلك وإيضاحه متوقع كائن.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على «جاهدوا» داخل في الصلة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ هو الذي يعرفه الرجل أسرارَه ثقة به. شبهة ببطانة الثوب، كما شبهه بالشعار. فعيلة من: ولج، كالدخيلة من: دخل. يعني: بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم أعمالكم فيجازيكم عليها. وهو كالمزيج لما يتوهم من ظاهر قوله: «ولما يعلم الله».

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَكَفَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ولما أمر الله تعالى بقتال المشركين، وقطع العصمة والموالات عنهم، أمر بمنعهم عن المساجد. فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم وما استقام ﴿أَنْ

يَغْفِرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴿ شَيْئاً مِنَ الْمَسَاجِدِ، فضلاً عن المسجد الحرام الذي هو صدرها ومقدمها. وقيل: هو المراد، وإنما جمع لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعالم الجميع، أو لأن كل موضع منه مسجد. ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد.

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ حال من الواو في «يعمروا». ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وتكذيبهم الرسول، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون حول البيت عراة، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها.

وقيل: هو قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. والمعنى: ما استقام أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة بيت الله تعالى، وعبادة غيره.

روي أن المهاجرين والأنصار عثروا أسارى بدر، ووثق عليّ ﷺ العباس حين أسر بقتال رسول الله وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول. فقال العباس: تذكرن مساوينا وتكتمون محاسننا. فقالوا: ألكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إننا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني. فنزلت: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك، لأنهم أوقعوها على الوجه الذي لا يستحق لأجله الثواب عليها عند الله. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ مقيمون مؤبدون لأجله.

﴿إِنَّمَا يَغْفُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها المعتبرة في شرع الاسلام ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ إن وجب عليه إلى مستحقها. والمعنى: إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، لا لغيرهم. ومن عمارتها: رم ما استهدم منها، وكنسها وتنظيفها، وتزيينها بالفرش، وتنويرها

بالسرج، وزيارتها للعبادة، وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم، وصيانتها مما لم تبين له، كحديث الدنيا.

وفي الحديث: يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس الله بهم حاجة.

وروي أيضاً عن النبي ﷺ: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش».

وقال أيضاً ﷺ: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره».

وعنه ﷺ: «من ألف المسجد ألفه الله».

وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمن».

وعنه أيضاً برواية أنس: «من أسرج في مسجد سراجاً لم تنزل الملائكة وحملته العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه».

وإنما لم يذكر الايمان بالرسول لما علم أن الايمان بالله قرينه، وتسامه الايمان به، ولدلالة قوله: «وأقام الصلاة وآتى الزكاة» عليه.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: في أبواب الدين، فإن الخشية عن المحاذير جليلة لا يكاد الرجل يتمالك عنها. قيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغترون بأحوالهم ويتكلموا عليها.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ
بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

روي عن الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: أن علي بن أبي
طالب عليه السلام والعباس بن عبدالمطلب وطلحة بن شيبه افتخروا، فقال طلحة: أنا
صاحب البيت، ويدي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب
السقاية والقائم عليها. وقال علي عليه السلام: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة
ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد. فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

السقاية والعمارة مصدران من: سقى وعمر، فلا يشبهان بالجث، بل لابد من
إضمار، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن؟ أو أجعلتم سقاية الحاج
كإيمان من آمن؟ ويؤيد الأول قراءة من قرأ: سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام.
ومعنى الهمة إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم
المتبنة.

ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي﴾ إلى طريق الثواب ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ، منهمكون في الضلالة، فكيف يساؤون الذين هداهم الله ووفّقهم للحق والصواب؟! وقيل: المراد بالظالمين الذين يسوّون بينهم وبين المؤمنين.

عن ابن سيرين: أَنَّ عَلِيًّا ؓ قَالَ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَمَّ أَلَا تَهَاجِر، أَلَا تَلْحَق بِرَسُولِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَلَسْتُ فِي أَفْضَلِ مِنَ الْهَجْرَةِ: أَعْمَرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَأَسْقِي حَاجَّ بَيْتِ اللَّهِ؟ فَنَزَلَتْ.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريدة، عن أبيه قال: «بينا شبّية والعبّاس يتفاخران إذ مرّ بهما عليّ بن أبي طالب ؓ، فقال: بماذا تتفاخران؟

فقال العبّاس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاجّ.

وقال شبّية: أوتيت عمارة المسجد الحرام.

فقال عليّ ؓ: استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا.

فقالا: وما أوتيت يا عليّ؟

قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتم بالله ورسوله ﷺ.

فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أما

تري إلى ما يستقبلني عليّ؟

فقال: ادعوا عليّاً، فدعي له، فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمّك؟

فقال: يا رسول الله صدمته بالحقّ، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض.

فنزل جبرئيل وقال: يا محمّد إنّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عمّك:

«أجعلتم سقاية الحاجّ» الآيات.

فقال العبّاس: قد رضينا، ثلاث مرّات»^(١).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ المختصون بالفوز بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا يزول. وقرأ حمزة: يبشرهم بالتخفيف. وتكثير المبشر به من الرحمة والرضوان والنعيم المقيم، إشعار بأنها وراء صفة الواصف وتعريف المعرف.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأييد، لأنه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعم الدنيا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنها نزلت في ابن أبي بلتعة حيث كتب إلى قريش بخبر النبي ﷺ لما أراد فتح مكة، فنهاه الله تعالى وسائر المؤمنين عن موالة الكفار وإن كانوا في النسب الأقربين، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه

وحرّضوا غيرهم عليه.

وقيل: نزلت نهياً عن موالة التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة. والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدّونكم عن الطاعة.

وقيل: نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرتنا، وذهبت تجاراتنا، وبقينا ضائعين.

وروي: أن من المهاجرين من تعلّقت به زوجته، ومنهم من تعلّق به أبواه وأولاده، فكانوا يمنعونهم من الهجرة، فيتركونها لأجلهم. فهذه الآية بين سبحانه أن أمر الدين مقدّم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الوالدين والولد فالأجنبيّ أولى. وبعد نزولها هاجروا، فجعل الرجل يأتيه أبوه وابنه وأخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، وبعد ذلك رخص لهم في الإنفاق.

ثم قال تأكيداً لهذا النهي بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ فترك طاعة الله لأجلهم، أو أطلعهم على أسرار المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالة في غير محلّها. وفي الحديث: «لا يجد أحد طعم الإيمان حتّى يحبّ في الله ويبغض في الله، وحتّى يحبّ في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه». ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم.

مأخوذ من العشرة. وقيل: من العشرة، فإنّ العشيرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة. وقرأ أبو بكر: عشيرتكم. ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها واقتطعتموها وجمعتموها ﴿وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ تخافون أنّها تكسد إذا اشتغلتم بطاعة الله تعالى والجهاد ﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾ اخترتموها لأنفسكم، ويعجبكم المقام فيها ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من طاعتها ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ الحبّ الاختياري دون الطبيعي، فإنّه لا يدخل تحت التكليف في التحقّظ عنه ﴿فَتَرْتَبِصُوا﴾ فانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ جواب الشرط متضمّن للوعيد. والأمر بمعنى العقوبة

العاجلة أو الآجلة. وقيل: فتح مكة. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يرشدكم، بل يخليهم لعنادهم.

وفي الآية تشديد عظيم، فإن فيها تكليف المؤمن أن يتجرد من الآباء والأبناء والعشائر وجميع حظوظ الدنيا لأجل الدين، وقل من يتخلص منه. اللهم وفقنا لما يوافق رضاك، حتى نحب فيك الأبعدين، ونبغض فيك الأقربين.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ تَوَبَّ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

ولما تقدم أمر المؤمنين بالقتال، ذكرهم بعده ما أتاهم من النصرة حالاً بعد حال، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني: مواطن الحرب، وهي مواقعها ومواقفها. وروي عن الصادقين عليه السلام أنهم قالوا: أنها كانت ثمانين موطناً. وروي أن المتوكل اشتكى في مرضه شكاية شديدة، فنذر أن يتصدق بمال كثير إن شفاه الله، فلما عوفي سأل العلماء عن حد المال الكثير، فاختلفت أقوالهم، فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى عليه السلام، وقد كان حبسه في داره، فأمر أن يكتب إليه، فكتب: يتصدق بثمانين درهماً. ثم سألوه عن العلة في ذلك، فقرأ هذه الآية، وقال: عددنا تلك المواطن فبلغن ثمانين موطناً.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين. ويجوز أن يقدر: في أيام موطن، أو يفسر الموطن بالوقت، كمقتل الحسين عليه السلام. ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَغْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ من «يوم حنين» أن يعطف على موضع «في موطن» فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف، حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جميع المواطن.

وهذا قول القاضي في تفسيره^(١)، ردّ بذلك قول الزمخشري في الكشف حيث قال: «الواجب أن يكون «يوم حنين» منصوباً بفعل مضر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أن قوله: «إِذْ أَغْجَبَتْكُمْ» بدل من «يوم حنين» فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت «إِذْ» بإضمار: اذكر^(٢).

وحنين وادٍ بين مكة والطائف، كانت فيه الواقعة بين المسلمين - وهم اثنا عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف حضروا فتح مكة، وقد انضم إليهم ألفان من الطلقاء - وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف.

فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن تغلب اليوم من قلة. فساءت مقالته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: قائلها أبو بكر. وقد روي عن أصحابنا: أن أبا بكر عانهم، وعلياً عليه السلام أعانهم. فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهمز المسلمون حتى بلغ فلهم^(٣) مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مركزه، وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم، والعباس بن عبدالمطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن

(١) أنوار التنزيل ٣: ٦٤.

(٢) الكشف ٢: ٢٥٩.

(٣) فلّ القوم: هزمهم، ورجل فلّ وقوم فلّ: منهزم ومنهزمون.

عبدالمطلب عن يساره في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن .
وقال ﷺ للعباس وكان صيتاً: صح بالناس. فنادى: يا معشر المهاجرين
والأنصار، يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ هذا
رسول الله ﷺ. فكروا وهم يقولون: لبيك لبيك. ونزلت الملائكة عليهم البياض
على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين فقال: الآن حمي
الوطيس^(١).

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ كفاً من تراب فرماه به، ثم قال: انهزموا وربّ الكعبة، فانهزموا
ونزل النصر من عند الله، وانهزمت هوازن، كما حكى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَلَمْ
تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ أي: الكثرة ﴿شِينًا﴾ من الإغناء، أو من أمر العدو ﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾. «ما» مصدرية، والباء بمعنى «مع»، أي: مع رحبها - أي:
سعتها - لا تجدون فيها مفرّاً تطمئنّ إليه نفوسكم من شدة الرعب، أي: لا تثبتون
فيها، كمن لا يسعه مكانه، فكأنها ضاقت عليكم. والجارّ والمجرور في موضع
الحال، أي: ملتبسة برحبها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْكَفَّارَ ظُهُورَكُمْ﴾ ﴿مُذْبِرِينَ﴾ منهزمين.
والإدبار الذهاب إلى خلف، خلاف الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وآمنوا ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا. وإعادة الجارّ للتنبيه على اختلاف حالهما. وقيل: هم
الذين ثبتوا مع الرسول ولم يفرّوا.

وروى الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال:
«السكينة ريح من الجنة تخرج منها طيبة، لها صورة كصورة وجه الانسان، تكون

(١) في هامش النسخة الخطية: «الوطيس: التنور، مثل في شدة الحرّ، فجعله رسول الله ﷺ
كناية عن شدة الحرب. منه».

مع الأنبياء». رواه العياشي^(١) مسنداً.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم، يعني: الملائكة. وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو ستة عشر ألفاً، على اختلاف الأقوال. عن الجبائي: أنَّ الملائكة نزلوا يوم حنين بتقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، ولم يباشروا القتال يومئذٍ، ولم يقاتلوا إلا يوم بدر.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري، وسلب الأموال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للاسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويفضّل عليهم.

روي: أنَّ ناساً منهم جاءوا فبايعوا رسول الله ﷺ على الاسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّ الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وقد سبي يومئذٍ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال: إنَّ عندي ما ترون، إنَّ خير القول أصدق، اختاروا إمّا ذراريكم ونساءكم وإمّا أموالكم.

فقالوا: ما كنّا نعدل بالأحساب شيئاً.

فقام رسول الله ﷺ فقال: إنَّ هؤلاء جاءوا مسلمين، وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتّى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه.

فقالوا: رضينا وسلّمنا.

فقال: إني لا أدري لعلّ فيكم من لا يرضى، فعروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك

إلينا. فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ غَائِمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

ولما تقدّم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهم عن المسجد
الحرام، وحظر عليهم دخوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾
مصدر، يقال نجس نجساً، وقدر قدراً. ومعناه: ذوّوا نجس. فجعلوا نجاسة بعينها
مبالغة في وصفهم - لفرط خبث باطنهم وظاهرهم - بها، كقولهم: زيد فسق، فإنّ
معهم الشرك الذي هو رأس النجاسات التي يجب الاجتناب عنها، فالاجتناب عنه
بطريق أولى، ولأنهم لا يجتنبون الأحداث والأخبار.

وعن ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من
صافح مشركاً توضأ. وعن الصادقين عليهما السلام: من صافح الكافر ويده رطبة غسل يده.
وبه قال فقهاؤنا، فإنّ الكفار بأنواعهم كافر نجس العين، وظاهر الآية يدلّ على
ذلك، وبه أيضاً روايات متظافرة مروية عن أئمتنا عليهم السلام.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم. وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة، أو
للمنع عن دخول الحرم، فلا يحجّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليّة
﴿بَعْدَ غَائِمِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة براءة التي نادى فيها عليّ عليه السلام بالبراءة، وقال: لا يحجّرن
بعد هذا العام مشرك، وهو عام تسع من الهجرة. وقيل: سنة حجة الوداع. وعندنا
أنهم كما منعوا من المسجد الحرام منعوا من جميع المساجد، لاشتراك العلّة، وهي
النجاسة.

وقال قتادة: سَمَاهُمْ نَجْساً لَأَنَّهُمْ يَجْنِبُونَ وَلَا يَغْتَسِلُونَ، ويحدثون ولا يتوضؤون، ولم يجتنبوا عن أنواع النجاسات، فمنعوا من دخول المسجد، كما أَنَّ الجنب وصاحب النجاسات لا يجوز لهم دخول المسجد.

وروي عن عمر بن عبدالعزيز أَنَّهُ كتب: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» الآية، للعلَّة المشتركة.

﴿وَأِنْ خِفْتُمْ عَيْنَلَهُ﴾ فقرأ بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه، أو تفضله على وجه آخر. وقد أنجز الله وعده، أَنَّ أرسل السماء عليهم مدراراً أكثر به خيرهم، ووفق أهل جدّة وصنعاء وتبالة^(١) وجرش فأسلموا وامتاروا^(٢) لهم. ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجّه إليهم الناس من أقطار الأرض، فحملوا الطعام إلى مكّة، وكان ذلك أعود عليهم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إن أوجبت الحكمة إغناءكم، وكان مصلحة لكم في دينكم.

وفي الأنوار: «قَيِّدَهُ بِالْمَشِيئَةِ لَتَنْقُطَ الْأَمَالُ إِلَى اللَّهِ، وَلِيَنْبَهَ عَلَى أَنَّهُ مُتَفَضِّلٌ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ الْغَنَى الْمَوْعُودُ يَكُونُ لِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، وَفِي عَامٍ دُونَ عَامٍ»^(٣).
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع على وفق الحكمة والمصلحة.

(١) في هامش النسخة الخطيّة: «التبالة - بفتح التاء، وتخفيف الباء الموحدة - بلدة صغيرة في اليمن. والجرش - بضم الجيم، وفتح الراء - مخلاف من مخاليف اليمن. منه». والمخلاف: الكورة من البلاد - وهي: البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى.

(٢) امتار أي: جمع الطعام والمونة. والميرة: الطعام الذي يدخره الانسان.

(٣) أنوار التنزيل ٣: ٦٥.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالجهاد الذي هو من أعظم الأسباب الموصلة إلى
النعم المذكورة. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالزام
الحجة وإقامة الحدود ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا ترق بهم
﴿وَمَاوَاهُمْ﴾ وماوى الفريقين ﴿جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَفْعَلُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا
يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

وروي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظل حجرته،
فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم نظر الشيطان. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق،
فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء
بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فنزلت: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما حكى عنهم
﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام.

روي: أنه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن
ويعيب المتخلفين. فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» المتمردين في كفرهم. وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينتقل ولا يهتدي. ويجوز أن يكون ذلك تنبيهاً على عذر الرسول ﷺ في استغفاره، وهو عدم يأسه عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والمنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١).

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

ثم أخبر سبحانه عن المنافقين المخلفين عن تبوك وابتهاجم بذلك، فقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلفهم النبي ولم يخرجهم معه إلى تبوك، لأنهم استأذنوه في التأخر فأذن لهم، وفرحوا ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ببقودهم عن

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء. روي: أنه ﷺ كان إذا صلى على ميت وقف على قبره ساعة يدعو له، فنهى عن الأمرين في المنافقين بسبب كفرهم بالله وموتهم على النفاق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهي. والفسق هنا الكفر، لأنه أعم منه، ويجوز إطلاق العام على الخاص.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ كرر للتأكيد. والأمر حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في فريق غير الأول.

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

ثم بين سبحانه تمام أخبار المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن. ويجوز أن يراد بها بعضها، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه. ﴿أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا. ويجوز أن تكون «أن» المفسرة. ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

ولما تقدّم ذكر الأعراب بقسميهم، عقبه بذكر السابقين إلى الإيمان، فقال:
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: السابقون إلى الإيمان وإلى الطاعات. وإنّما مدحهم
بالسبق لأنّ السابق إلى شيء يتبعه غيره، فيكون متبوعاً وغير تابع له، فهو إمام فيه
وداع إلى الخير بسبقه إليه، وكذلك من سبق إلى الشرّ يكون أسوأ حالاً لهذه العلّة.
﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ من الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة وإلى الحبشة.
وهؤلاء السابقون هم الذين صلّوا إلى القبليتين. وقيل: الذين شهدوا بدرًا، أو الذين
أسلموا قبل الهجرة.

﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الاسلام. وهم أهل
بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة أو اثني عشر رجلاً، وأهل العقبة الثانية، وكانوا
سبعين. والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير، فعلمهم القرآن.
﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ لحقوا بالسابقين من القبليتين، أو من اتبعوهم
بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما
نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقرأ ابن
كثير: من تحتها، كما هو في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
الذي يصغر في جنبه كلّ نعيم.

قال في المجمع: «وفي هذه الآية دلالة على فضل السابقين ومزيتهم على

غيرهم، لما لحقهم من أنواع المشقة في نصرة الدين، فمنها مفارقة العشائر والأقربين، ومنها مباينة المألوف من الدين، ومنها نصرة الاسلام مع قلة العدد وكثرة العدو، ومنها السبق إلى الايمان والدعاء إليه.

واختلف في أول من أسلم من المهاجرين. قيل: أول من آمن خديجة بنت خويلد، ثم علي بن أبي طالب. وهو قول ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأنس، وزيد بن أرقم، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

وقال أنس: بعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وأسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وصلى خلف رسول الله يوم الثلاثاء.

وقال مجاهد وابن إسحاق: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين، وكان مع رسول الله ﷺ، أخذه من أبي طالب وضمه إلى نفسه يربيّه في حجره، وكان معه حتى بعث نبياً.

وقال الكلبي: إنه أسلم وله تسع سنين. وقيل: اثنتا عشرة سنة، عن أبي الأسود. قال السيّد أبو طالب الهروي: وهو الصحيح.

وفي تفسير الثعلبي روى إسماعيل بن أياس بن عفيف، عن أبيه، عن جدّه عفيف، قال: كنت امرأةً تاجراً فقدّمت مكة أيام الحجّ، فنزلت على العباس بن عبدالمطلب، وكان العباس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيام الموسم. فبينما أنا والعباس بمنى إذ جاء رجل شابّ حين حلّقت^(١) الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء. ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشابّ فركع الغلام والمرأة، فخرّ الشابّ ساجداً فسجداً معه، فرفع الشابّ فرفع الغلام والمرأة.

عوف في قوله تعالى: «والسابقون الأولون» قال: «هم عشرة من قريش، أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْ حَوْلَكُمْ﴾ من جملة من حول بلدتكم، يعني: المدينة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين يسكنون البدو ﴿مُنَافِقُونَ﴾ وهم جبهة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو «ممن حولكم». ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ومن أهل المدينة قوم. ﴿مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ أي تمرنوا على النفاق، من قولهم: مرن فلان على عمله ومرد عليه، إذا درب به حتى لان عليه ومهر فيه. فعلى الوجه الأخير «مردوا» صفة موصوف محذوف. ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، قوله: أنا ابن جلاوطلاع الثنايا، أي: أنا ابن رجل جلا ووضح أمره. وعلى الأول صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق.

ودل على مهارتهم في النفاق قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، أي: مهارتهم فيه وتتوهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وصدق فراستك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِنِّيَاتِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر يهدم بنيانهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

ولما تقدّم ذكر المؤمنين والمنافقين عقّب سبحانه بالترغيب في الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ عبّر سبحانه عن إيجابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالاشتراء، وجعل الثواب ثمنًا، وأعمالهم الحسنة مثنًا، تمثيلًا لإيجابته إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. عن الصادق عليه السلام: «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها».

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف بيان ما لأجله الشراء. وقيل: «يقاتلون» في معنى الأمر. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبنّي للمفعول. وقد عرفت أنّ الواو لا توجب الترتيب، وأنّ فعل البعض قد يستند إلى الكل.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكّد لما دلّ عليه الشراء، فإنّه في معنى الوعد، يعني: أنّ الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرر للتأكيد، وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تداركهم برأفته ورحمته.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ وتاب الله على الثلاثة. وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ تخلّفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم، فإنهم المرجون ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكليّة. وهو مثل لشدة الحيرة، كأنهم لا يجدون في الأرض موضع قرار ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور ﴿وَضَلُّوا﴾ وعلموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ استغفاره.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ رجع عليهم بالقبول والرحمة كرامة بعد أخرى ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليستقيموا على توبتهم ويشبّثوا، أو ليتوبوا أيضاً في المستقبل إن فرطت منهم خطيئة. أو المعنى: رجع عليهم بالتوفيق للتوبة ليتوبوا، أو أنزل قبول توبتهم، أو سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرّة ﴿الرَّحِيمُ﴾ المتفضّل عليهم بالنعم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

ثم خاطب سبحانه المؤمنين المصدّقين بالله المقرّين بنبوّة محمد ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نيّة وقولاً وعملاً، أي: في توبتهم وإنابتهم، فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ
 اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا
 مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ
 ثِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا
 يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ
 أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

ولَمَّا قَصَّ اللَّهُ سبحانه قصة الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى
 تبوك، ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه، وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه،
 لرأفته بهم ورحمته عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والإزرار على ما
 كانوا فعلوه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ﴾ عن حكمه. نهي عبّر عنه بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ
 عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا يصونوا أنفسهم عما لم يصن رسول الله نفسه عنه، ويكابدوا ما
 يكابده من الأهوال.

روي أنه كان أبو خيثمة عبدالله بن خيثمة تخلف إلى أن مضى من مسير
 رسول الله ﷺ عشرة أيام، ثم دخل يوماً على امرأتين له في يوم حار في
 عريشين لهما، قد رشتاهما وبردتا الماء، وهياتا له الطعام. فقام على العريشين،
 وقد بلغ بستانه، فياكل منه الرطب ويشرب الماء البارد، فنظر فقال: ظلّ
 ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، ورسول الله ﷺ - مع أنه قد غفر الله له ما

مسيرهم . وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل . وهو في الأصل اسم فاعل من : ودى إذا سال . فشاع بمعنى الأرض ، أي : ولا يسرون أرضاً في ذهابهم ومجيئهم ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ أثبت ذلك ﴿لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بـ«كتب» أي : أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أحسن جزاء أعمالهم .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ولما تقدّم الترغيب في الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب ، وتأنيب من تخلف عنه بأبلغ أسباب التأنيب ، بين موضع الرخصة في تأخر من تأخر عنه ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي ، أي : وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم ، كما لا يستقيم أن يتبسطوا جميعاً ، فإنه يخل بأمر المعاش وانتظام العالم غالباً . ولو صحّ وأمكن خروج الجميع ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب على الكافة ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم .

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة - كقبيلة أو أهل بلدة - جماعة قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقه فيه ، ويتحملوا مشاقّ تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه إرشاد القوم وإنذارهم . وتخصيصه بالذكر لأنه أهم . وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلّم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع على الناس ، والتبسط في البلاد ، والترأس فيهم ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون منه .

واستدلّ به على أن أخبار الآحاد حجة ، لأنّ عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر

من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه، لتنذر فرقها كي يتذكروا ويحذروا، فلو لم يعتبر الإخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك.

قال في الكشف^(١): وللآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل استبق المؤمنون إلى النفي، وانقطعوا جميعاً عن التفقه واستماع الوحي، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأنّ الجدل بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة. ويكون الضمير في «ليتفقهوا» و«لينذروا» لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي «رجعوا» للطوائف، أي: ولينذر البواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم. وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

ثم بين سبحانه ما يجب تقديمه في القتال والقتل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ يقرّبون منكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ فإنّ القتال وإن كان واجباً مع

جميع الكفار لكن الأقرب منهم فالأقرب، كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإبذار عشيرته ثم غيرهم من العرب، فحارب قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام، وذلك لأن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى.

وقيل: هم يهود حوالي المدينة، كقريظة والنضير وخيبر. وقيل: الروم، فإنهم كانوا يسكنون الشام، وهو قريب من المدينة.

والأول أصح، لأن السورة نزلت في سنة تسع، وقد فرغ النبي ﷺ من أولئك. وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والترك والديلم تلا هذه الآية.

﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْفَةً﴾ شدة وشجاعة وصبراً على القتال. ونحوه: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾^(١). ﴿وَأَغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض إنكاراً واستهزاءً باعتقاد المؤمنين ﴿أَنْتُمْ زَادْتُمْ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ أي: تصديقاً ويقيناً ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة، وانضمام الايمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمْ يَسْتَفْشِئُونَ﴾ بنزولها، أي: يسرون، ويبشرون بعضهم بعضاً، قد تهللت وجوههم وفرحوا بنزولها، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر ونفاق ﴿فَرَزَدَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كُفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، فإنهم بتجديد الوحي جددوا كُفراً ونفاقاً فازداد كفرهم عنده واستحكم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحكم وتضاعف ذلك منهم حتى ماتوا عليه.



سورة يونس

مَكِّيَّة، وهي مائة وتسع آيات. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بيونس وكذَّب به، وبعدد من غرق مع فرعون.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة يونس في كلِّ شهرين أو ثلاثة لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقرَّين».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدُقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

لَمَّا ختم الله سورة براءة بذكر الرسول، افتتح هذه السورة بذكره ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آتَى﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي. وقيل: معناه: أنا الله أرى. وبواقي وجوه التفسير فيه مذكورة في

صدر سورة البقرة. فحَمَّها ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص. وقرأ ورش بين بين. وأمالها الباقون، إجراءً لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ المراد بالكتاب السورة، أو القرآن كله، أو اللوح المحفوظ، فإنَّ القرآن منزل منه. ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم، أو لأنَّه كلام حكيم، أو محكم آياته لم ينسخ شيء منها.

﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب. و«عجبا» خبر «كان»، واسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾. وذكر اللام للدلالة على أنَّهم جعلوه أعجوبة لهم يوجَّهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ من جنس رجالهم، دون أن يكون عظيماً من عظمائهم.

قيل: كانوا يقولون: العجب أنَّ الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلاَّ يتيم أبي طالب. وهو من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة. هذا وإنَّه ﷺ لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلاَّ في المال، وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك.

وقيل: تعجَّبوا من أنَّه عزَّ وجلَّ بعث بشراً رسولاً، كما سبق^(١) في سورة الأنعام.

﴿إِنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ «أن» هي المفسرة لـ «أن أوحينا» فيه معنى القول، أو المخففة من الثقيلة، فتكون في موضع مفعول «أوحينا». وأصله: أوحينا أنَّ الشَّان قولنا: أنذر الناس.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عمَّ الإنذار، إذ قلَّما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن

ينذر منه . وخصّص البشارة بالمؤمنين ، إذ ليس للكفار ما يصحّ أن يبشروا به ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة . سمّيت قدماً لأنّ سبق والسعي بها ، كما سمّيت النعمة يداً ، لأنّها تعطى باليد . وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها ، والتنبيه على أنّهم إنّما ينالونها بصدق القول والنية .

وعن أبي سعيد الخدري : أنّ معنى قدم صدق شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة . وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

ولمّا قال : «أكان للناس عجباً» قالوا : وكيف لا نعجب ولا علم لنا بالمرسل ؟ فقال : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون : لساحر ، على أنّ الإشارة إلى الرسول . وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة ، معجزة إيّاهم عن المعارضة ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ

﴿أُولَٰئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما واطبوا عليه، وتمرنوا به من

المعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

ثم وعد سبحانه المؤمنين بعد ما أوعد الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى
الجنة. أو لإدراك الحقائق، كما قال: ﴿يُؤْتِيكَ اللَّهُ مِنْ لَدُنْهِ مَعْلَمًا﴾ «من عمل بما علم ورتبه الله علم ما لم
يعلم». أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دلّ على أن سبب الهداية هو
الإيمان والعمل الصالح، لكن دلّ منطوق قوله: «بإيمانهم» على استقلال الإيمان
بالسببية، وأن العمل الصالح كالسمة والرديف له.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استئناف، أو خبر ثانٍ، أو حال من

الضمير المنصوب على المعنى الأخير.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ خبر، أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو

متعلق بـ «تجري» أو بـ «يهدي».

﴿دَعَاؤُهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ﴿فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسُبُّكَ تَسْبِيحًا.

وذلك لا على وجه العبادة، فإنه لا تكليف في الجنة، بل على طريق التلذذ من غير

كلفة. ﴿وَتَحِيَّاتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم ﴿فِيهَا

سَلَامٌ﴾. قيل: هي تحية الله لهم. والمعنى: سلمتم من الآفات والمكاره التي ابتلي بها

أهل النار.

﴿وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ﴾ وآخر دعائهم ﴿أَنِ الْحَفَظُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أن يقولوا ذلك. وقيل: إنهم إذا دخلوا الجنة وعانوا عظمة الله وكبرياه مجدوه وعتوه بنعوت الجلال، ثم حيّاهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو الله تعالى^(١)، فحمدوه وأتوا عليه بصفات الإكرام. و«أن» هي المخففة من الثقلية. وأصله: أنه الحمد، على أن الضمير للشأن.

وَلَوْ يَعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَدَّرُ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

ثم عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا. المطمئنين إليها، الغافلين عن الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْ يَعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ولو يسرعه إليهم إذا دعوا به على أنفسهم أو على أهاليهم عند الغيظ والضجر، مثل قول الانسان: رفعني الله من بينكم، وقوله لولده: اللهم العنه ولا تبارك فيه ﴿اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: كما يعجل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا استعجلوها. فوضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم، أو بأن المراد شر استعجلوه، كقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء. وتقدير الكلام: لو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه.

والمعنى: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخيرات ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب: لقضى على

(١) أي: حيّاهم الله تعالى.

البناء للفاعل، وهو الله تعالى.

﴿فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلّت عليه الشرطية. كأنّه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي، فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً، لإلزام الحجّة عليهم.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن قلة صبر الانسان على الضرّ والشدائد، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ المشقة والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنبِهِ﴾ ملقياً بجنبه، أي: مضطجماً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وفائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال. والمعنى: أنّه لا يزال داعياً لا يفتّر عن الدعاء حتّى يزول عنه الضرر، فهو يدعو في حالاته كلّها يستدفع البلاء. واللام في الانسان للجنس.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أزلنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ ووهبنا له العافية ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته الأولى، أي: استمرّ على كفره كما كان قبل أن يمسه الضرّ. أو مرّ عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أي: كأنّه لم يدعنا، فخفف وحذف ضمير الشأن، كقوله:

ونحرٍ مشرق اللون كأن ثدياه حقان

﴿إِلَى ضُرِّهِ﴾ إلى كشف ضرّ ﴿مَسَّهُ كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: زين الشيطان بوسوسته لهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في

الشهوات والأمانى الباطلة، والإعراض عن العبادات عند الرخاء.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ
فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ثم أخبر سبحانه عما نزل بالأمم الماضية من المثالات، وحذر هذه الأمة عن
مثل مصارعهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة بأنواع العذاب
﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حين ظلموا بالتكذيب وفرط العصيان، واستعمال القوى والجوارح لا
على ما ينبغي. وهو ظرف لـ «أهلكنا». ﴿وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الدالة
على صدقهم. وهو حال من الواو بإضمار «قد»، أو عطف على «ظلموا». ﴿وَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما كانوا يؤمنون حقاً. والمعنى: أن السبب
في هلاكهم تكذيبهم الرسل، وعلم الله إصرارهم على الكفر، وأنه لا فائدة في
إمهالهم بعد أن لزمهم الحجة بإرسال الرسل.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم
عليه، بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل
مجرم، أو نجزيكم. فوضع المظهر موضع المضمحل للدلالة على كمال جرمهم وأنهم
أعلام فيه. وهو وعيد لأهل مكة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم في الأرض من بعد
القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أتعلمون
خيراً أم شراً؟ فنعاملكم على حسب أعمالكم. و«كيف» في محل النصب حالاً

